كلمة العدد

لمصلحة من؟!

بقلم :

سمو الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة

إن الزوبعة التي تعرضت لها البحرين مؤخراً لم تكن الأولى، فقد كانت بلادنا الحبيبة وطوال تاريخها محوطة بالكثير من الأحقاد والتطلعات والنوايا الخبيثة التي استهدفت وتستهدف أمن الوطن والمواطنين لصالح جهات مشبوهة ومرصودة لا يهمها ما تؤول إليها الأمور وما يمكن أن تتمخض عنه الفوضى بقدر ما يهمها أن تحقق أهدافها التي لم تعد خافية على أحد والتي لو تحققت لقضت على ما تحقق عبر السنين بالجهد والعرق والتضحيات ولعصفت بالأخضر واليابس ولأصبح المضلَّلين والمخدوعين هم وقودها وضحاياها . .

ماحدث كما قلت ليس جديداً فالسموم تنصب على عقول المخدوعين من مجموعة تتخذ من الخارج حصناً لها ومن مجموعات شرق الخليج . . وهؤلاء وأولئك يراهنون على تيار يسود المنطقة العربية رافعين شعارات براقة لا يؤمنون بها ويعزفون على أوتار الحماسة الشبابية لحناً للفتنة والتمزق والدمار .

لقد بدأت البحرين ومنذ عشر سنوات طريقها الشامخ للإصلاح ووضعت ميثاق العمل الوطني . . ناقشته . . عرضته على جموع المواطنين . . طرحته للاستفتاء . . وأقره الشعب وبدأ العمل لتنفيذه طريقاً اختاره الشعب بكل فئاته وطوائفه يحدد ملامح المرحلة القادمة ويرسي مبدأ المواطنة والانتماء . . فالأصوات القبيحة التي تتسلل من الخارج تنسي أن جموع الشباب البحريني الموجودين الآن على الساحة ولدوا جميعاً في البحرين . . فالبحرين وطنهم وهي أرضهم وهي مستقبلهم لم يروا غيرها ولا ينتمون لغير ترابها وتراثها وماضيها ويومها وغدها . . وطرح الميثاق وبدأ الإصلاح منذ عشر سنوات التزاماً صادقاً وأميناً بما طرحه الشعب وأقره ووافق عليه . . خطوات إثر خطوات، انتخاب في غاية الشفافية، ومجالس نيابية على أرقى مستوى . . كل ذلك والبناء مستمر ومتواصل لا يتوقف لحظة ولا يتوانى أو يهدأ . . كل ألوان الطيف في الحكومة وفي البرلمان، الحرية مكفولة للجميع في إطار القانون الذي أقرته الأغلبية الساحقة وأصبح النموذج البحريني للإصلاح نموذجاً فريداً بالنسبة للمنطقة وللعالم . . بل إنه كان مثار التعليقات غير المفهومة من جهات شرق الخليج وأصوات الحقد في الخارج، وقبل أن ترتفع لافتة واحدة في تونس أو مصر تطالب بالإصلاح، كان الإصلاح

في البحرين حقيقة وواقعاً وممارسة يشارك فيها الجميع . . ويسهم فيها الجميع بكل همة ونشاط ومصداقية .

لقد وضعت البحرين في أولويات سياستها منذ عقود طويلة أحد الثوابت المهمة التي لم تخرج عنها وهو مفهوم الأسرة الواحدة، وفي ظل هذا الثابت عاش البحرينيون إخوة وأشقاء . . لا ضغينة ولا تفتت ولا فتنة . . وذلك لإدراكهم الواعي بما يحيط بهم من أحقاد وما يستهدف وطنهم من أطماع، ولإدراكهم الواعي بالأهمية الاستراتيجية لموقع بلادهم، ولإيمانهم بأن أمن البحرين واستقرارها عباءة توفر الرفاهية والمستقبل المشرق للجميع وأن المساس بهذه الدولة المهمة هو خط أحمر لا يمكن لأي حقد، مهما بلغ، ولا لأي دسيسة، مهما خفيت، ولا لأي إغراء لبعض ذوي النفوس الضعيفة أن يحقق أغراضه أو ينجح في المساس بأمن هذا الوطن وما وراءه من عالم عربي فسيح تعتبر البحرين حائطه الشرقي والسياج الذي يقف في وجه الأطماع الكثيرة التي لم تتوقف لحظة واحدة طوال تاريخ البحرين الممتد والعريق .

إن الإصلاح في البحرين لم يكن مجرد وعود أو أمنيات ولم يكن أحلاماً تصورها أجهزة الإعلام كما حدث في بعض الدول الشقيقة . . ولكن الإصلاح في البحرين حقيقة وواقع تشهده العين في كل ركن وفي كل "فريج" وهو إصلاح لم يتحقق في سنوات طوال بل إن الجيل الذي عاش على هذه الأرض منذ عشرين عاماً أو أكثر وغالبيتهم أحياء يستطيعون دون أدنى مجهود أن يقارنوا بين أمس البحرين واليوم وكيف استطاعت هذه الدولة الصغيرة القليلة الموارد إلى أقصى حد كيف استطاعت بالسياسة الحكيمة التي تدير الأمور أن تحقق معدلاً للنمو لفت أنظار العالم كله وأصبح حديث المحافل الاقتصادية في كل مكان، كلنا رأينا

في الماضي رأي العين أكواخ الغاب والبيوت المتهالكة . . وكلنا رأينا بأعيننا أن أعلى مبنى في البحرين لم يكن يزيد على ثلاثة طوابق . . وكلنا رأينا كيف أن أكبر مسجد في البحرين كان مسجد القضيبية قبل تجديده . . كلنا رأينا ذلك، وكلنا نرى اليوم ناطحات السحاب والشوارع الحديثة والمساجد الضخمة والفخمة والجسور العملاقة والمدن الجديدة والحدائق والمراكز التجارية والبنوك كلنا رأينا ما كان وكلنا يرى ما هو كائن اليوم . . كلنا يدرك بحس العدالة والنزاهة مقدار الجهد الذي بذل لتحقيق ما تحقق فالإصلاح ملحمة مستمرة لا تتوقف والتنمية هدف أسمى لمملكة البحرين لا تتوقف ولا تتلكأ يجني ثمارها الجميع ويعيش في ظلالها الجميع لا تفرقة بين مواطن وآخر مهما كان لونه ومهما كان فكره . . سفينة صغيرة يقودها ربان ماهر ومعه بحارة بارعون ومتمكنون يحافظون على أمن السفينة ومن فيها وسط بحر العصر المتلاطم الأمواج والمتباين العواصف والأنواء .

إن الشعارات الخبيثة التي ينشرها الحاقدون في الخارج تقول برحيل النظام كتقليد أعمى لما حدث في بعض العواصم . . فهل سأل رافعو هذا الشعار أنفسهم وماذا بعد فيما لو تحقق مطلبهم ؟ وكيف أن ذلك لو تحقق سوف يدفع بالبلاد إلى فوضى تعصف بالجميع ؟

لقد حمى آل خليفة هذه البلاد منذ قرابة الثلاثمائة عام ومازالوا يحمون هذا الوطن الذي لم يدرك شبابه بعد أنهم أبناء هذه الأرض وأن ما يُصَب في آذانهم من إشاعات مشبوهة ومرفوضة إنما يهدد مستقبلهم وأمنهم ومستقبل وأمن أبنائهم من بعدهم . . لقد تجاوزت الزوبعة الأخيرة الكثير من الثوابت وكانت مثار سخرية المراقبين، فلأول مرة في تاريخ العالم كله تقوم مجموعة بالاستيلاء على مستشفى وإغلاقه وتخريبه

والتحصن فيه في ظاهرة كما قلت لم تحدث في التاريخ . فقد كانت الجيوش المتحاربة في أشد فترات القسوة والوحشية تتجنب المساس بالمستشفيات والإسعاف . . فهل أدرك ذلك من قاموا بهذا العمل ؟ وهل أدركوا الآن إلى أي مدى تحاول أن تجرهم الأطماع الخبيثة إلى هاوية سحيقة سيكونون هم وقودها . . إن كل الصالحين يرجون ذلك ويرجون أن يدرك الجميع أن البحرين كانت وستظل وطناً واحداً وأسرة واحدة صغيرة ودولة تحميها عين يقظة وتوجه دفتها يد ماهرة وقادرة وأمينة . والله ولي التوفيق

عبد الله بن خالد آل خليفة

تاريخ رحمة بن جابر

رحمة بن جابر في سطور

معركة شرسة بين الشيخ أحمد بن سلمان ورحمة بن جابر تنتهي بالقضاء على رحمة

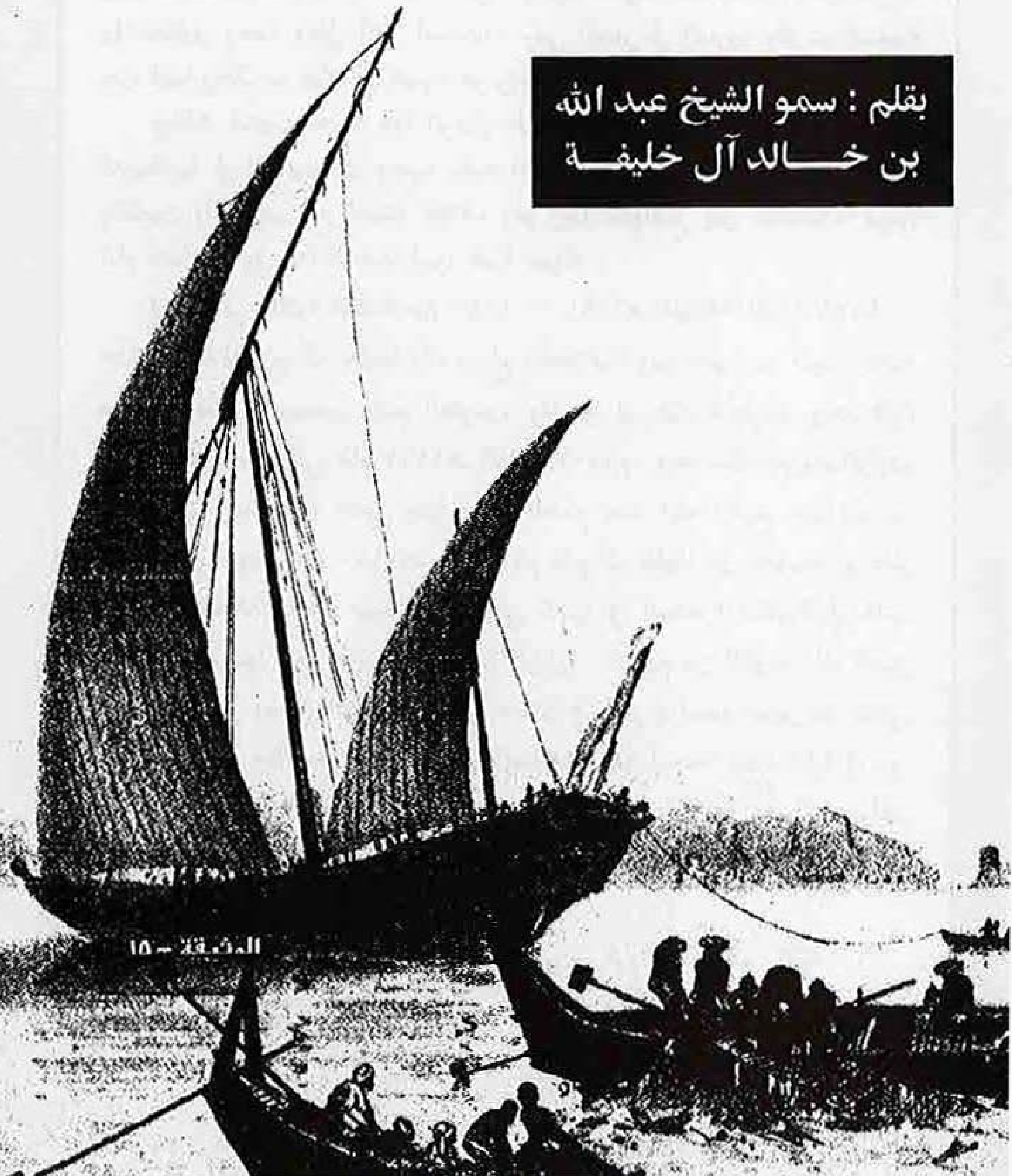
يعتبر رحمة بن جابر بلا جدال بحاراً بارعاً ومقاتلاً يمتاز بالذكاء والإقدام، احتل في تاريخ البحرية الخليجية مكاناً بارزاً وظل اسمه يتردد في المنطقة، بل وفي أوروبا لمساحة زمنية امتدت لربع قرن وقد كانت حياة هذا المقاتل سلسلة من المعارك المتصلة والشرسة . . حاول خلالها أكثر من مرة الهجوم على البحرين ولكنه باء بالفشل . وقد ولد رحمة بن جابر في الكويت عام ١٧٥٦م وكان أبوه جابر بن عذبي شيخ الجلاهمة وقد هجر الجلاهمة والفاضل الكويت خلف بني خليفة أولاد عمهم إلى قطر . . واستقر الجلاهمة في خور حسان في الوقت الذي كان فيه آل خليفة يؤسسون دولتهم في الزبارة . وبعد موت جابر أصبح رحمة رئيساً لقبيلة الجلاهمة وهو بعد شاب في سن العشرين يملؤه طموح شديد وتدفعه أطماع لا تقف عند حد وتطلع كبير في أن ينشئ لنفسه دولة كما فعل آل خليفة، وأخذ طوال حياته الباكرة يتغنى شعراً بهذا الحلم العريض . وقد دفعته أطماعه التي لا تهدأ، كما دفعه النجاح الذي حققه آل خليفة في إنشاء دولتهم إلى أن تحول إلى خطر يهدد أمن الخليج . . وجعل من نفسه عدواً للبحرين فعقد أكثر من تحالف لمهاجمتها وفشل فأخذ يطارد سفنها في الخليج وتحول إلى قرصان عنيد يستولي على أي سفينة يتمكن منها حتى أطلق عليه الإنجليز اسم قرصان الخليج واستمرت حياته على هذا النسق حتى خرج له من البحرين بطل لا يقل عنه حنكة أو براعة أو ذكاء هو الشيخ أحمد بن سلمان آل خليفة وتمكن البطل البحريني من مطاردته واللحاق به فلما وجد رحمة بن جابر أنه خاسر لامحالة أشعل النار في البارود الموجود في سفينته فتطايرت في الهواء وتمزقت أشلاؤه وأشلاء ابنه الصغير . وفي السطور التالية يستعرض سمو الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة سطوراً موثقة من حياة رحمة بن جابر .

(الوثيقة)



الجلاهمة وسيرتهم التاريخية

بقلم : سمو الشيخ عبد الله
بن خـــالد آل خليفــة



تاريخ رحمة بن جابر الجلاهمة الذي أرعب الخليج لمدة ربع قرن من ١٨٠١ – ١٨٢٦م الموافق ١٢١٧ – ١٢٤٢هـ . انتهت حياته حيث نشبت بينه وبين أحمد بن سلمان آل خليفة معركة بحرية ضارية بالقرب من رأس تنورة، ولما تضايق رحمة وقتل أكثر أصحابه، رمى الجمر في البارود وثارت السفينة بمن فيها وتناثرت جثته في الهواء هو وابنه الصغير .

وبذلك انتهت حياة هذا الرجل المرعب الذي وصفه أحد رجال الدولة البريطانية في الخليج بأن وجهه يشبه الأسد، لما يملأ وجهه من آثار الجروح والطعون والخدوش مع لحيته الكثة، وهو رجل متواضع بين أصحابه، شرس أمام أعدائه . وفي هذا البحث أسرد قصة حياته .

في حوالي الفترة الممتدة من ١٠٨٠ – ١٠٩١هـ الموافقة للفترة ١٦٦٩ – ١٦٨٠م عندما نزح آل خليفة وآل صباح والجلاهمة ومن معهم من الهدار كانوا مرتبطين بعضهم ببعض باسم العتوب، ونزحوا إلى هذه الأطراف وبعد فترة سكنوا الكويت حوالي عام ١١١٤هـ الموافق ١٧٠٢م، وبعد سكناهم واستقرارهم في الكويت وبعد وفاة الشيخ صباح تولى الحكم بعده ابنه الشيخ عبد الله بن صباح، وفي عهده سنة ١١٨٠هـ - ١٧٦٦م نزح آل خليفة من الكويت إلى قطر على أثر حادثة وقعت بينهم وبين بني كعب في المحمرة مذكورة في كتب التاريخ، وأسسوا قلعة مريروعمروا بلدة الزبارة . تبعهم من الكويت آل فاضل وآل جلاهمة، وسكن الجلاهمة خور حسان في قطر يرأسهم جابر بن عذبي الجلاهمة وبعد وفاة جابر ترأس قبيلة الجلاهمة ابنه أرحمة وكان شابا في سن العشرين ونفسه تراوده أن يحكم بلداً وأن ينشئ حوله قوة وهو من مواليد الكويت سنة ١١٧٠هـ الموافق ١٧٥٦م، وهو شاعر ويقول في شعره مفتخراً بنسبه :

جد قال ابن كلثوم قبلي مثايل   على حرنا والحر يرجع لوايله

تخـر جبابـرة المناصب سجـد   إذا فطـم منـا تغلبي حمايلـه

معارضاً بيت عمرو بن كلثوم في معلقته التي قالها بعد قتله عمرو بن هند ملك الحيرة والتي مطلعها :

ألا هبي بصحنك فأصبحينا   ولا تبقي خمـــور الأندرينا

ويقول :

إذا بلغ الفطـام لنـا رضيع   تخر له الجبـــابر ساجدينا

وهو ينتسب إلى قبيلة تغلب بن وائل كأبناء عمه من آل خليفة وآل صباح ومن نزح معهم من الهدار وفي هذه الفترة من أوائل القرن التاسع عشر أي سنة ١٢١٧هـ - ١٨٠١م، أخذت دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب في الانتشار واحتل الأمير سعود الكبير الإحساء فأرسل والي بغداد قوة من الجيش العثماني لإخراج سعود من الإحساء فوصلت القوة إلى الإحساء وبدأ قائد الجيش في حصار سعود في الإحساء .

وطالت مدة الحصار وكان في القوة عدد كبير من عرب المنتفق، وخشي القائد أن يميل العرب إلى صف الإمام سعود فانسحب بجيشه وانتصر الإمام سعود، وزحف على الكويت والعراق ودخل بغداد واحتل مراقد الأئمة في النجف وكربلاء ونهب جميع الذهب والتحف التي فيها، وانسحب إلى الدرعية وعلى أثر ذلك التحق رحمة بن جابر بحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأصبح من رجالها المخلصين وأصبح ضد قبيلة العتوب الذين نزحوا من الزبارة إلى جزيرة البحرين وبدأ يهاجم سفنهم تحت إمرة الدولة السعودية الأولى وطلب من الإمام سعود الرخصة بأن ينزل الدمام فسمح له بذلك وبنى حصن الدمام مع قبيلته وساندته قبيلة البوسميط متحالفاً معهم، وفي هذه الظروف سنة ١٨٠١م - ١٢١٧هـ هاجم سلطان مسقط البحرين بجيوش

جرارة، وحاصر البحرين، ولما رأى آل خليفة كثرة الجيوش والسفن التي قادها سلطان مسقط ارتأوا أن المصالحة معه أحسن من الحرب، واتفقوا معه صلحاً وسلموا له البلاد ثم انتقلوا إلى الزبارة . وقد استلم سلطان مسقط رهينة أخاهم محمد بن أحمد آل خليفة حتى لا يحاولون مهاجمة البحرين، وبعد مقتل السيد سلطان بن أحمد البوسعيدي اتصل آل خليفة بالإمام سعود وطلبوا منه المساعدة لاسترجاع البحرين، فأرسل لهم قوة بقيادة إبراهيم بن عفيصان، واستطاعوا استرجاع البحرين وطلب آل خليفة من بن عفيصان أن يسلموا لهم البلد، فقال لهم : ائتوني بأمر من الإمام في الدرعية لأسلمكم البلد، واحتل ابن عفيصان قلعة الديوان في المنامة، فانتقل آل خليفة إلى الزبارة، وجاءتهم سرية من الدرعية بقيادة سليمان بن سيف بن طوق وكانت الزبارة محصنة لهاسور، ونزلت السرية على ماء يسمى حلوان قرب الزبارة . وأرسل أميرها سلمان بن سيف بن طوق إلى الشيخ سلمان وأخيه الشيخ عبد الله أن يقابلاه وقال عبد الله لسلمان : أنا سأخرج إذا مسكوني فبلدكم حصينة، وإذا اشتد عليكم الحصار ورأيتم صعوبة أمركم في المدينة فاركبوا سفنكم واتجهوا إلى أي مكان، فلم يوافق سلمان على ذلك وقال سأتوكل على الله، وخرج هو وكبار قومه من الزبارة لمقابلة سليمان بن سيف بن طوق، وهناك طلب من أهل الزبارة أن يفتحوا الأبواب، وقال لكبار آل خليفة : أنتم تذهبون إلى الدرعية لمقابلة الإمام وأرسل معهم سرية ترافقهم، وهم : الشيخ سلمان بن أحمد آل خليفة، والشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة، وابن أخيهم الشيخ عبدالله بن خليفة بن محمد آل خليفة، ومحمد بن صقر المعاودة، والشاعر عبد الجليل بن ياسين الطباطبائي، والسيد عبد الرحمن الزواوي، ولما وصلوا إلى نجد أمر آل خليفة الثلاثة بالبقاء في الدرعية، وسمح للباقين الرجوع إلى الزبارة . وقد سر بذلك رحمة كثيراً وكان سكان الزبارة يذهبون بسفنهم إلى الهند للتجارة وقد سافر الشيخ عبد الرحمن بن راشد الفاضل إلى الهند بسفينته الجابري، ومر على سلطان مسقط السيد

سعيد بن سلطان البوسعيدي والشيخ عبد الرحمن الفاضل وهو ابن أخت الشيخين سلمان وعبد الله ابني أحمد آل خليفة، وطلب منه المساعدة لاسترجاع البحرين فأمده بمال وكتب له رسالة ليذهب بها إلى سواحل وجزر فارس لكي يساعدوه، وكان للسلطان بعض النفوذ على السواحل، واستطاع عبد الرحمن أن يجمع قوة من العرب من سواحل فارس كما كتب لأهل الزبارة أن يستقبلوه في البحر ويهاجم معهم البحرين، وفعلاً قابله شباب من سكان الزبارة وهاجموا البحرين بالقوة التي جمعها الشيخ عبد الرحمن الفاضل فأخرجوا بن عفيصان من البحرين، وخرج بن عفيصان إلى قطر، وقابله سليمان بن سيف في الزبارة ورجع رحمة بن جابر إلى قطر وآزر ابن عفيصان، ووصل الخبر إلى الدرعية بما حدث ؛ واجتمعوا بسلمان وعبد الله وسألوهما : لماذا يقوم أبناؤكما بهذا العمل ؟ وقالوا : لو تركتونا في البحرين لحفظناها لكم ولنا .

وفي هذا الوقت كان محمد علي باشا يهاجمهم في الحجاز، ولم يرغبوا في فتح جبهتين، وأرسلوا وفداً إلى البحرين، فاستقبلهم أهل البحرين بجفاء، وأكثروا أمامهم من شرب الدخان ؛ فرجعوا إلى الدرعية فأخبروهم أن أهل البحرين مخالفون ويشربون الدخان، فاجتمع الإمام بسلمان وعبد الله فقالا له : أطلقوا سراحنا وسوف نصلح الأحوال ونعيد المياه إلى مجاريها، وأطلق سراحهم الإمام سعود وأعطاهما بعض النقود، وأعطاهما رسالة إلى والي الإحساء لمساعدتهما بالرجال لمهاجمة البحرين في حالة الامتناع، ولما وصل الخبر إلى رحمة، وابن عفيصان بإطلاق سراحهما كتبوا إلى الإمام : لا تطلقوا سراحهما لأنهما هم رؤساء البلد، وأرسل سرية خلفهما لتعيدهما إلى الدرعية ؛ ووصلا إلى البر وكانت السفن تنتظرهما حول ميناء العجير وركبوا السفن والسرية أدركتهما وأطلقت عليهما النار ولكن الرصاص لم يصبهما وارتحلا إلى البحرين .

وفي ذلك الوقت كان رحمه بن جابر وابن عفيصان قد جهزا قوة لاحتلال البحرين ثانياً، وقد أرسلت البحرين سفناً لمقابلة هذه القوة، ولما نزل عبد الرحمن بن أحمد إلى البحرين، ذهب رأساً إلى السفن لقيادتها ووصل إليها وقادها فعلاً وكان الوقت آخر النهار عندما تقابل الطرفان، فقال رحمه لابن عفيصان : أن عبد الله بن أحمد هو قائد السفن فقال له : إن عبدالله بن أحمد موقوف في الدرعية فرد عليه رحمه وقال له : سوف أعمل إشارة وأثبت لك أن عبد الله بن أحمد هو القائد فوضع سراجاً في سفينة صغيرة تسمى قلص ورمى له أنجر في البحر وطلع في سفينته إلى الشمال، وقال : نحن سنكون في عاليهم وننتصر عليهم بالرياح الغربية، ولما كان عبد الله هو القائد رأى النور يتقلب في السفينة الصغيرة والموج يحركه، وقال إن رحمه تعلى علينا فأمر سفنه أن تتعلى على رحمه ؛ وطرح ولما أصبح الصباح وجد رحمه السفن أعلى منه فقال لابن عفيصان : أنا قلت لك أن السفن فيها عبد الله بن أحمد ورأى رحمه أن قوته لا تقارن بقوة السفن التي فيها عبد الله بن أحمد وأنهم أقوى في البحر، فأراد أن يهرب فقال له ابن عفيصان معارضاً : كيف تهرب ؟

لا خير في رجل يجر جريره وإذا تضايق دربهـا خلاهـا

فرد رحمه : مانخليها ولكن سترى فطرح، ووصلت سفن البحرين واشتبكت معه في مكان يسمى خكيكرة سنة ١٢٢٥هـ - ١٨١٠م واشتدت الحرب بين الطرفين وجرت مرازيم السفن بالدماء وقتل في هذه المعركة الشيخ راشد بن عبد الله بن أحمد آل خليفة وقال رجال للشيخ عبد الله : ابنك راشد، قال : ارموه في خن السفينة ياما في ظهري من راشد .

وبعد معركة خكيكيرة انتقل سكان الزبارة إلى البحرين ونزل الشيخ سلمان الحاكم الرفاع وبنى قلعة الرفاع وجعلها مقراً لحكمه ونزل معه أتباعه ونزل الشيخ عبد الله بن أحمد المحرق وبنى قلعة بو ماهر حماية لماء الشرب الذي

تشرب منه المحرق في البحر وهو غير بعيد من القلعة وسكن أتباعه في مدينة المحرق وتسمى كل فريق بالقبيلة التي سكنت ابتداءً من الساحل الجنوبي للمحرق وبني الشيخ عبد الله بيوتاً في وسط مدينةالمحرق، أما الشيخ رحمه بن جابر الجلاهمة، فنظراً لتقلبه في ميوله بين الدرعية ومسقط فقد أغضب سلوكه هذا الإمام سعود الكبير بن عبد العزيز وطرده من الدمام فانتقل من مكان إلى مكان وأصبح قرصان بحر يهاجم السفن وينهبها، وخاصة سفن البحرين ؛ وفي إحدى غاراته على البحرين تبعته قوة بحرية من البحرين وحاصرته في رأس تنورة وقد غربت الشمس فقالوا نحاصره إن ظهر فنحن في وجهه ومن الجهة الشرقية يحيط به حد رأس تنورة، والبر من الشمال ونتركه إلى الصباح، وفي الصباح نهاجمه ؛ ولما أصبحوا في الصباح لم يجدوا رحمه في مكانه وإذا هو في الليل قد حفر الرمال وشق طريقا لسفينته وخرج من الفتحة التي شقها في حد رأس تنورة وهرب .

واشتدت العداوة بينه وبين الشيخ عبد الله بن أحمد، وحرض سلطان مسقط سعيد بن سلطان على مهاجمة البحرين، فهاجموها في جزيرة سترة لأنه لم يستطع الدخول من القليعة حيث أغرق فيها سفناً مشحونة بالحجارة فنزلوا سترة، وقال له سلطان بعد أن أخذ مدة لم تظهر عليه أي قوة من البحرين: [وين عتيباتك ياشيخ رحمه] فغضب رحمة من تصغير اسم قبيلته، وأجابه: [يجهزون عشاك يا حضرة السلطان] وغضب فانسحب في سفينته المجموعة راحلاً من البحرين، أما السلطان فقد نزلت عليه قوات من الرفاع وهزمته فركب سفنه راجعاً إلى مسقط .

فلما كانت سنة ١٢٣٥هـ - ١٨٢٠م وعقدت بريطانيا معاهدة الساحل المتصالح مع مشايخ الخليج دخل رحمه بن جابر في معاهدة الصلح البريطانية وتوسطت بريطانيا بينه وبين حكام البحرين لتصلح بينهم ليهدأ البحر وزار

رحمه الشيخ عبد الله بن أحمد وأبناءه بالمحرق ثم طلب أن يقابل الشيخ سلمان بن أحمد بالرفاع وذهب إلى الرفاع وطلب مقابلة أبناء سلمان، وكان من عادته إذا دخل المجلس عند الأبناء يأمر هو بالقهوة، فلما ذهب إلى أحمد بن سلمان قال أحمد بن سلمان لخدمه [حال دخول رحمه إلى المجلس تدخلون القهوة وإذا ظهرت القهوة يدخل الحلو ثم الطيب ولا تدعوا له فرصة بالأمر على القهوة] وكانت أم أحمد بن سلمان من قبيلة الجلاهمة، وكان رحمه من أخواله فقال رحمه بعد خروجه من المجلس : [إذا كان هناك من سيقتلني فهو أحمد] وبقي رحمه على عمله يهدد البحر والسفن، وإذا وجد أي سفينة للبحرين يقتل أصحابها وكان في أوج قوته يجمع حوالي ألفي مقاتل في سفنه .

ولكن في آخر أمره ضعفت قوته وتفرقت عنه جماعته ولم يبق معه إلا القليل، وفي يوم من الأيام هاجم البحرين وسمي هذا الهجوم (بيوش) الهرفي وجاء إلى فرضة المنامة ووجد فيها طليان (خراف) للحاكم فاستولى عليها وكانت هناك سفينة كبيرة تتبع الأحمدة من رأس الرمان وقفاً على مأتمهم يسمي نوع السفينة (القنجه) جاءت محملة بالأرز من الهند ورست في المزروعية، حيث ألقت مراسيها وكان فيها اثنان يحرسانها فقتلهما رحمه واستولى على السفينة وقال في حق الشيخ عبد الله بن أحمد حاكم البحرين :

خذنا القنجة والاشقر يشوف   ومن على الفرضة نهبنا الهروف

فأمر عبد الله أبناءه وأبناء أخيه سلمان بملاحقة رحمه وتأديبه ؛ فخرجت السفن خلفه ولكنه ذهب إلى القطيف وباع الأرز هناك، ولحقت به سفن البحرين وهو لايزال في القطيف فلما رأى سفن البحرين خرج من ميناء القطيف متوجهاً إلى عرض البحر ليهرب منهم واستطاع أن يتقدم عليهم والسفن خلفه وكان الهواء خفيفاً .

وكان الشيخ عيسى بن طريف البنعلي في سفينته والشيخ أحمد بن سلمان في سفينته فقال عيسى لأحمد : هل تريدون الرجل أم تريدونه يهرب ؟ قال له نريده . قال: إذن دعني أنزل رجالي مع رجالك في سفينتك ونركب عليها مجاديف السفينتين لنلحقه لأن الهواء ساكن ؛ فوافقه وأسرعوا بالسفينة حتى لحقت برحمه فسأل رحمه وكان قد كبر في السن وضعف بصره، قال : ماهي السفينة التي تلحقنا ؟ فأجابوه : سفينة أحمد بن سلمان، فقال : يشرع ولد مريوم، فسألوه : ليش؟ لأنه لم يلامس ناعمات الأبدان، وفعلاً وصلت سفينة الشيخ أحمد بن سلمان إلى سفينة رحمه "غطروشة" وتقابلت السفينتان، وكانوا يبدأون برمي الخشب يشعلون فيه النار ويرمونه على بعضهم البعض قبل أن تلتحم السفينتان ويشعلون النار في الموقع المعد لإشعالها في السفينة ويسمى السريدان . واستطاع رجال أحمد التغلب على جماعة رحمه وقتل ابن عمه محمد الذي كان يعتمد عليه، فسأل عن عبده طرار فقيل له بأنه قد قتل فأخذ ناراً من السريدان ورماها في البارود فانفجرت السفينة بمن فيها واشتعلت فيها النيران، وكان ذلك سنة ١٢٤٢هـ الموافق ١٨٢٦م .

وهكذا انتهى الرجل الذي جعل الحرب والقتال مسلكه الوحيد وكان له أخ اسمه عبد الله بن جابر لم يشاركه في الحرب، وقد أنجب عبد الله بن جابر الجلاهمة وذريته لاتزال تعيش في البحرين، وأبناؤه سليمان وابنه عبد الله بن سليمان وصباح وبشر .

أما رحمه فله ولد واحد اسمه بشر بن رحمه، سلك مسلك والده في دخول المعارك السياسية وقتل في إحدى المعارك (معركة رأس تنورة) بين آل عبد الله وآل سلمان . ويقول المؤرخ أمين الريحاني عن رحمه بن جابر الجلاهمة في كتابه ملوك العرب رحم الله كل من مات بطلاً في ساحة الوغى .

عبد الله بن خالد آل خليفة

كما تقع البحرين بين خطي عرض ٢٥° : ٤٥َ و ٢٦° : ٢٥َ شمالاً وبين خطي طول ٥٠° : ٢٥َ و ٥٠° : ٤٥َ شرقاً[١٠] . وأهم هذه الجزر وأكبرها جزيرة البحرين التي يبلغ طولها بين ٣٧ — ٣٠ ميلا وعرضها بين ٨ — ١٢ ميلاً وتقع فيها المنامة في الوقت الحاضر، وتليها من حيث الأهمية جزيرتا المحرق وسترة[١١] . وتقسم هذه الجزر إلى مجموعتين جزريتين أولاهما جزيرة البحرين وتوابعها وعددها ١٧ جزيرة، وثانيتهما مجموعة جزر حوار وعددها ١٦ جزيرة[١٢] . وإذا أخذنا هذه الجزر مع بعضها فإنها تكون مجموعة مندمجة تقريباً وسط خليج سلوى الذي يفصل بين ساحل القطيف وشبه جزيرة قطر وأنها تشكل أكبر مجموعة جزرية في وسط الخليج العربي[١٣] وهذا ما ساعد على قيام نشاط ملاحي .

أما بالنسبة إلى تسميتها فإنها ارتبطت بالبحر والنشاط الملاحي، إذ أن المؤرخ الروماني (بيلليني)[١٤]، هو الذي أطلق عليها اسم (تيلوس)[١٥]، مشيراً في ذلك إلى لآلئها وأحجارها الكريمة[١٦]، وهذا يدل على اعتمادها على اللآلئ منذ العهود القديمة .

وتذكر المصادر التاريخية[١٧] أن جزر البحرين سميت في العصر الجاهلي باسم أوال[١٨] . وبقيت هذه التسمية حتى القرن السادس عشر حين أطلق اسم البحرين على الساحل الممتد من الكويت إلى قطر بما فيها الجزر الواقعة أمامها[١٩] .

ويمكن أن يستدل من خلال تسمية البحرين سواء بأسمائها القديمة أو اسمها الحالي بأنها ذات علاقة كبيرة بالملاحة والبحر، إذ اقترن اسمها قديماً بجواهرها ولآلئها الثمينة، واسمها الحالي مأخوذ من موقعها بين بحرين وتوسطها البحر وهذا ما يدل على ارتباط اسمها بالنشاط الملاحي، كما تعددت الآراء عن سبب تسميتها، إذ يقال أنها سميت بهذا الاسم لوجود ينابيع مياه

طبيعية حلوة متفجرة في قاع البحر فينبثق منها الماء العذب وسط مياه البحر المالحة وهي التي ساعدت على جودة لآلئها ولذا سماها العرب بالبحرين لوجود البحر المالح والبحر العذب[٢٠] كما أن هناك تفسيراً آخر يقول أنها سميت بالبحرين لأنها كانت تقع على شاطئ البحرين، بحر عمان والخليج العربي[٢١]، ويقصد بذلك امتدادها على الخليج العربي وخليج عمان، وهذا التعليل ينطبق تماماً على مدلول البحرين عند العرب قديماً[٢٢]، واقتصرت التسمية في الوقت الحاضر على جزر مستطيلة الشكل تقع في خليج سلوى بالقرب من الساحل الغربي للخليج العربي[٢٣]، وهكذا فإن لفظ البحرين كان يطلق قديماً على الساحل الغربي بأكمله من الكويت إلى القطيف بما في ذلك مجموعة جزر البحرين، ثم اختصت هذه الجزر بهذا الاسم وذلك من قبيل ما تداولت عليه ألسنة الناس من إطلاق العام على الخاص الأهم، كإطلاق لفظ مصر على القاهرة أو الشام على دمشق وغيرها من المسميات الأخرى التي تنطبق على ذلك[٢٤] .

وربما كان هذا التعدد في أسمائها راجعاً إلى ظهورها كمركز تجاري هام هفت إليه قلوب التجار الطامعين منهم والطامحين بهدف الثراء الذي عرفت به لدرجة أن اسمها أطلق على المنطقة كلها وكانت مجموعة الجزر التي تعرف اليوم باسم البحرين هي القاعدة الأساسية لتجارة الساحل الشرقي للجزيرة العربية[٢٥] .

وتعد بلاد البحرين من المراكز التجارية الهامة بالخليج العربي إذ قامت بدور كبير في إثراء حركة التجارة البحرية منذ القدم وكان بعض أهلها يمتلكون السفن التي كانت تنقل التجارة من بلدان الخليج العربي إلى شبه القارة الهندية، واستوردت البحرين التوابل والسيوف والرماح والعطور والحرير من الهندوصدرت اللؤلؤ والتمور[٢٦] . وهذا يدل على أهمية موقع البحرين، وكذلك

مهارة أهلها منذ القدم في الملاحة واهتمامهم بالتجارة ونقل السلع التجارية وإقامة علاقات تجارية مع المناطق الأخرى من العالم .

ونتيجة لموقع البحرين المتميز فقد عدت من المراكز التجارية المهمة في العصور الإسلامية الأولى إلى جانب البصرة ومسقط وهرمز، إذ أن المراكب التجارية التي كانت تنقل البضائع من البصرة إلى الصين كانت تمر بها، وبذلك فإنها كانت مرسى لسفن التجارة التي تمر منها إلى الهند والسند والصين وتحمل هذه السفن مختلف البضائع[٢٧] .

وبجانب التجارة فقد نعمت جزيرة البحرين بمغاصات اللؤلؤ، التي حملت الدولة العباسية على استحداث ولاية خاصة للإشراف على الغوص، وبالتالي فإن أعداداً كبيرة من السفن تقصدها لتنقل منها هذه السلعة وتتاجر بها مع مناطق العالم الأخرى[٢٨] . وبذلك فإن موقع البحرين ومنذ القدم كان موقعاً ممتازاً ساعد أهلها على ممارسة النشاط التجاري وهذا ما أكسبهم المهارة والخبرة على مر العصور وجعلهم من سادة اليم والشراع .

واعتمد الاقتصاد البحريني في السابق إلى جانب اللؤلؤ على الزراعة وبصورة خاصة الجزء الشمالي من البحرين نتيجة لوجود المياه العذبة والتربة المناسبة[٢٩] . ورغم ذلك كانت إمكانياتهم الزراعية محدودة بسبب طبيعة الأرض الصحراوية الجرداء، إضافة إلى قلة سقوط الأمطار وهذا ما دفع السكان بالتوجه نحو البحر ومزاولة أعماله، ومنذ القدم ركب البحرينيون البحر وجابوه بسفنهم التي صنعوها بأيديهم حتى وصلوا إلى بقاع بعيدة من العالم[٣٠] .

ولغرض معرفة أثر المناخ في نشاط البحرين الملاحي ينبغي أن نسلط الضوء على الحرارة وحركة الرياح، علما أنه يمكن تقسيم السنة في البحرين إلى ثلاثة فصول هي فصل الشتاء وهو أفضل الفصول ويمتد من كانون الأول (ديسمبر) إلى آذار (مارس) حيث يتميز برياحه الشمالية الغربية، أما الموسمان الآخران

فيمكن أن نسميهما موسمي صيف فالصيف المعتدل الحرارة يكون عادة في شهور نيسان (أبريل) وأيار (مايو) وتشرين الأول والثاني (أكتوبر ونوفمبر)، أما الصيف شديد الحرارة فيكون في الفترة ما بين تموز (يوليو) وأيلول (سبتمبر) وهنا تهب رياح حارة رطبة[٣١]، وبالنسبة للحرارة امتازت البحرين بمناخ حار مشبع بالرطوبة صيفاً ومعتدل قليل الأمطار شتاءً[٣٢] وهذا ما جعلها تعد من المناطق الفقيرة بغطائها النباتي، وقد ألزم هذا الفقر سكانها في أن يستعينوا بمعيشتهم إلى جانب ماتنتجه مناطقهم من بعض أنواع التمور والغلات الزراعية الأخرى كالحنطة والشعير، بالاشتغال بصيد الأسماك واستخراج اللؤلؤ وكذلك الاشتغال بالنقل البحري والتجارة[٣٣] .

وعليه فإن قساوة البيئة الطبيعية وفقر تربتها جعلهم يتجهون صوب البحر والإفادة منه فتعلموا الملاحة وركوب البحر وعاشوا على صيد الأسماك والتجارة، وأصبحوا بحارة مهرة من الدرجة الأولى . وصاروا ملاحين وصيادين وتجاراً وغواصين وراء اللآلئ وبذلك استطاعوا أن يعوضوا ما فقدوه في البر من الخيرات[٣٤] . وهذه الخصائص المناخية هي التي حدت من الإمكانيات السكانية في تطوير المساحات الزراعية في البحرين وأصبح السكان غير قادرين على إنتاج المواد الغذائيـــة الكافية لمعيشتهم من البر ولذا اتجهوا صوب البحر[٣٥] .

أما حركة الرياح فلها الأثر البارز في النشاط الملاحي، فقد استفاد الملاحون العرب من خواص الرياح الموسمية في المحيط الهندي وأوقات هبوبها في ممارسة نشاطهم الملاحي، وهي الوسيلة الوحيدة التي مكنت السفن من الإبحار بهـــا[٣٦] .

وتهب هذه الرياح عادة وبصورة عامة من البحر إلى البر صيفاً من جهة الشرق ومن الشمال في بقية أيام السنة ويكون هبوبها موازياً للساحل ويلائم

دخول السفن للميناء وخروجها[٣٧] . واشتهروا أيضا بمعرفتهم الجيدة بمواسم هبوب الرياح والتيارات البحرية والفلك وابتكارهم الشراع المثلث الذي أكسب سفنهم السرعة وسهولة المناورة في مواجهة حركة الرياح[٣٨] . وأهل البحرين خبراء ممتازون في صناعة السفن ذاع صيتهم وشهرتهم في البحار لمهارتهم الملاحية وشجاعتهم أمام العواصف والأنواء . وكانت أشرعة السفن المصنعة في البحرين لاتقل شهرة عن صيتهم في صيد اللؤلؤ والمرجان وتجارتهما[٣٩] .

وبذلك فإنهم ساروا برحلاتهم الملاحية على وفق الظروف المناخية السائدة، فالرياح الموسمية القادمة من الشمال الشرقي عادة تؤثر في حركة السفن شتاءً والتي تمتد من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) إلى شهر آذار (مارس) من كل عام، وتعد هذه المدة من أفضل المواسم المناسبة لحركة الملاحة بالسفن الشراعية القادمة من مناطق شبه جزيرة العرب باتجاه شرق أفريقيا[٤٠]، أما الرياح القادمة من الجنوب الغربي والتي تبدأ من شهر أيار (مايو) إلى شهر أيلول (سبتمبر) من كل عام فإنها تساعد على حركة السفن الشراعية للقيام برحلاتها إلى الصين وتعود إلى جنوب الجزيرة العربية والخليج العربي[٤١]، أما في الربيع فتساعد حركة الرياح الشمالية الشرقية في دفع السفن لتعود إلى نقطة انطلاقها وخلال دورة الرياح هذه يتم التبــادل التجاري وحركة السفن[٤٢] .

أما بالنسبة لفصل الصيف فإن الجو يصبح فيه مناسباً لأعمال الغوص للحصول على اللؤلؤ الذي يصقل محلياً ثم يأخذه التجار إلى الهند شتاءً ليباع هناك بشكل صفقات في معظم الأحيان[٤٣] . بينما في الهند يكون الطقس غير مناسب لأعمال التجارة، إذ تتعرض الهند لنوع شديد من الأمطار والعواصف على عكس الشتاء الذي يكون مناسبا للتجارة مع الهند، إذ أن الطقس يكون مناسباً لذلك، وهذا ما يعود بالفائدة على رواج التجارة البحرينية الهندية[٤٤] .

وبذلك فإن أغلب الرحلات التجارية كانت تذهب شتاءً إلى تلك المناطق وتعود في فصل الربيع مستفيدة من هذه الظروف المناخية .

ومن خلال ما تقدم يمكن القول بأن مناخ البحرين متمثلاً في درجات الحرارة والرياح كان له أثر كبير على نشاط السكان في البحرين وأصبح عاملاً مساعداً على قيام نشاط ملاحي ممثلاً في الغوص على اللؤلؤ والتجارة .

خصائص البحرين الملاحية وأهمية الموقع

تتميز سواحل جزر البحرين بكونها أراضي رملية منخفضة(٤٥) وهي خالية من المرتفعات، ما عدا هضبة الدخان التي يصل ارتفاعها إلى ٤٤٠ قدماً فوق سطح البحر، وبها قليل من الكثبان الرملية في طرفها الشمالي(٤٦) . وهذا ما يؤثر على الملاحة البحرية بمقربة من الساحل لقلة عمق المياه، وبذلك فإن السفن ترسو بعيداً عن ذلك، لتقوم سفن أخرى صغيرة قليلة الغاطس بنقل البضائع إليها، كذلك تميزت سواحل البحرين بوجود الأخوار(٤٧)، التي لعبت دوراً رئيسياً في حياة سكان البحرين، فعلى رؤوسها البارزة استقرت جماعات الصيادين التي تمارس مهنة صيد الأسماك، وفي مياهها الضحلة وجد هؤلاء الحماية التي ينشدونها من أمواج البحر العاتية، أو من غارات القبائل البدوية(٤٨) كما تساعد ظاهرة المد والجزر التي تتعرض لها جزر البحرين في حركة الملاحة الساحلية وفي عملية دخول السفن إلى الموانئ وخروجها منها، وكان لها تأثير بالغ في صيد الأسماك بطريقة الحظائر التي يشيع استخدامها في سواحل الخليج العربي(٤٩)، كما أن الجزر الصغيرة المتناثرة حول جزيرة البحرين ساعد وجودها على هدوء حركة الماء وكذلك لها أهمية أخرى إذ أنها

تستخدم كمحطات لصيادي السمك وملاجئ لهم وقت الضرورة، وتستخدم كمراكز لصيادي اللؤلؤ أيضاً وبعضها صالح لاستقبال السفن[٥٠] .

أما بالنسبة إلى أعماق المياه فإن الخليج العربي يصنف كونه بحراً ضحلاً، إذ يبلغ معدل عمقه نحو ٣٥ متراً، وأعمق نقطة فيه بلغت ١٠٠ متر، ويتصف جانبه الغربي أمام السواحل العربية بضحالته إذ لا يزيد عمقه عن ٥٠ متراً، وبذلك فإن السفن التي يبلغ غاطسها أكثر من ٢٠ قدماً ترسو على بعد أكثر من ثلاثة أميال (٥ كم)[٥١] .

وخليج البحرين كله من رأس ركان إلى رأس تنورة البالغ طوله ٧٣ ميلاً هو كتلة من الشعب الصخرية قليلة الغور باستثناء مجرى متوسط الاتساع هو الذي يجري شمالاً وجنوباً من الساحل الشرقي لجزيرة المحرق يسمح بمرور السفن، وأعظم العقبات الكبيرة بالنسبة للملاحة هي فشت الديبل بين جزيرة المحرق ورأس ركان لمسافة طولها أربعة أميال وعرضها ثلاثة ثم فشت الجارم الذي يحمي ميناء المنامة من الرياح الشمالية والغربيةويساعد على احتماء السفن ودخولها فيه، وفي الجانب الواقع تجاه البحر المفتوح تنتهي مياه البحرين الضحلة على بعد ٥٤ ميلاً عن شمال المحرق،ويوجد طريق يسمى (خور الباب) من المنامة إلى القطيف تطرقه السفن التي لايزيد غاطسها عن ١٥ قدماً[٥٢] .

كما تتميز سواحل جزر البحرين بكونها تتألف من تكوينات جيرية من الشعاب المرجانية[٥٣] . التي هي من ظاهرات البحار الدافئة الضحلة ذات المياه الصافية التي تميز بها الخليج العربي[٥٤]، وبالرغم من وجود الطحالب والشعاب المرجانية[٥٥]، التي تعوق عملية الملاحة بالنسبة للسفن الكبيرة، فإن المراكب الصغيرة تستطيع اجتيازها نتيجة لصفاء مياهها، وبالتالي يمكن رؤية تلك الشعاب واجتيازها[٥٦] . وللشعاب المرجانية فائدة كبيرة ساعدت في قيام النشاط الملاحي وحركة السفن إذ أنها عملت كمصدات تحمي السفن عند

دخولها إلى الموانئ وعند خروجها منها ومن أمواج البحر التي تدفعها رياح الشمال أمامها(٥٧) .

ولقد ساعدت ضحالة مياهها على سهولة استغلالها كمصائد للأسماك وفي الملاحة الهامشية الخفيفة، ونمو مغاصات اللؤلؤ فيها منذ مئات السنين(٥٨) .

ولعل من المفيد ذكره أن الملاحين العرب استفادوا من هذه الظواهر لمعرفتهم تلك السواحل معرفة تامة وإجادتهم الملاحة بقواربهم الصغيرة(٥٩) . قبل أن يتقدم فن الملاحة وتبني السفن الكبيرة التي صاحبت أعمال الكشف الجغرافي، وكان سكان هذه السواحل يستغلون سفنهم الصغيرة وزوارقهم في استخراج اللؤلؤ وفي صيد السمك، كما كانوا يستغلونها في نقل التجارة بينها وبين السواحل الأخرى للمحيط الهندي(٦٠) .

ومن جانب آخر تعد جزر البحرين مفتاح شبه الجزيرة العربية(٦١)، وتتمتع بمركز طبيعي جيد وموقع تجاري متميز، فهي حلقة وصل بين موانئ الخليج العربي والمحيط الهندي(٦٢)، كما أن طبيعتها التي جعلت أكثر من نصف أراضيها صالحة للزراعة بسبب وجود الينابيع الحلوة ووجود النخيل فيها بكثرة أكسب الجزيرة وجهاً أخضر وجعلها مركزاً أكثر استقطابا للسكن فيها، كما أن امتلاكها لأكبر مغاصات اللؤلؤ أعطى أهمية كبيرة لموقعها(٦٣) .

ونتيجة لتلك الأهمية التي يتمتع بها موقع البحرين فقـد وصفها ديوراند (**Durand**) فيقول : "الجزر فضة والبحر لؤلؤ وتستطيع أن ترى قطع المرجان في الأعماق، وتمتلك ينابيع الماء النقية التي تظهر خلال الماء الأجاج عند مدخل الميناء وفي أماكن متفرقة"(٦٤) كما وصفها الريحاني بقوله : "ليس بين مسقط والبصرة أجمل من مركز هذه الجزيرة وليس أصلح منه للتجارة أو الحرب فهي تتوسط الخليج في زاوية حصينة منه، كأنها بارجة راسية في خليج متسع بين قطر والقطيف بل كأنها مهد اللؤلؤ جوهرة كبيرة فلا عجب إذا تسابق إليها

الفاتحون في قديم الزمان"[٦٥] . وقد أثبتت الأحداث في إمارات الخليج العربي أن موقع جزر البحرين قد أعطاها امتيازاً في تاريخها وأهميتها الاقتصادية منذ القدم، إذ أنها احتلت موقعاً جغرافياً مهماً بالنسبة للخليج العربي وتوسطها لخطوط الملاحة البحرية[٦٦] .

ومن هنا يتضح بأن موقع البحرين الجغرافي ساعد على قيام نشاط ملاحي متمثلاً بجعلها مركزاً تجارياً مهماً منذ القدم تتجمع فيه البضائع القادمة من أوروبا والهند ويعاد تصديرها إلى المناطق الداخلية في الجزيرة العربية[٦٧] .

وليس من قبيل الصدف أن تشير الموسوعة البريطانية إلى البحرين بقولها (أرخبيل له أهميته الاستراتيجية والتجارية لدى الأشوريين والفرس واليونان)[٦٨] . وهو يدل على أهمية موقع البحرين، إذ لا توجد في الخليج العربي نقطة أخرى تؤلف في الوقت نفسه مركزاً جغرافياً واقتصادياً واستراتيجياً كما هو الحال في البحرين[٦٩] .

وهذا الموقع المهم أيضاً جعل البحرين محط أنظار الطامعين فقد توجه البرتغاليون نحو البحرين لاحتلالها وجردوا عليها حملة بحرية كبيرة عام ١٥١٧م لكنهم ارتدوا عنها نتيجة المقاومة الشديدة التي أبداها سكان الجزيرة[٧٠]، كما أنهم هاجموها مرة أخرى في عام ١٥٢١م وتمكنوا من احتلالها[٧١] .

وقد فضل البرتغاليون احتلال جزر البحرين على باقي المناطق في الخليج العربي لأنها كانت غنية بصيد اللؤلؤ ومتميزة بثرائها في الخليج العربي[٧٢] .

كذلك تطلع الهولنديون لجعل البحرين قاعدة لنشاطهم التجاري نتيجة لمرور التجارة من خلالها وجعلها سوقاً بديلة في حالة تعطل تجارتهم في بندر

عباس[٧٣]، وحاولوا فتح مقر لهم في البحرين لغرض إبرام العقود والصفقات التجارية[٧٤]، ولكنهم فشلوا في مهمتهم[٧٥].

كما أن اهتمام العثمانيين بالبحرين يدل على أهمية موقعها، وتكشف إحدى الوثائق العثمانية ذلك من خلال التقرير الذي أرسله خورشيد باشا إلى "الباشمعاون" الذي أوضح فيه مزايا وخصائص موقع البحرين وملاءمته واتخاذه كقاعدة لهم، بعد أن قارنها بالأحساء والقطيف، إذ يقول : "إذا نظرنا إلى ميناء الاحساء، نجدها على مسافة يوم من وادي الاحساء ولايوجد في ذلك ماء للشرب، وليس لأهل الاحساء سفن كبيرة ولا صغيرة، أما القطيف فإنها على مسافة يومين من جهة شمال الاحساء، وأن مياهه قليلة وليست لديهم سفن كبيرة بل لديهم بعض القوارب الصغيرة لصيد السمك، ولذلك فإن ميناء المراكب التي تغدو وتروح من نواحي الهند وعمان والعراق وإليها إنما هو جزيرة البحرين، لذلك اعتبرت البحرين ميناءً للاحساء والقطيف حسب ما يقول التقرير". وبذلك فإن جزر البحرين هي الأنسب للسيطرة عليها[٧٦].

إضافة إلى ذلك كان هناك تهديد آخر للبحرين هو خطر فارس، إذ تمكنوا من احتلالها في عام ١٦٢٢م وبقيت تحت سيطرتهم حتى عام ١٧٨٣م عندما دخلها آل خليفة من العتوب[٧٧]. كذلك كان التوجه البريطاني نحو البحرين وربطها بعدة معاهدات، يدل على أهميتها، إذ أنها اعتبرتها مركزاً استراتيجياً لها في الخليج العربي[٧٨]. أضف إلى ذلك أن دخول آل خليفة للبحرين وسيطرتهم عليها يؤكد استراتيجية موقعها المتميز[٧٩].

ومن خلال ذلك يمكن القول بأن البحرين تمتعت بموقع جغرافي متميز ساعد كثيراً على قيام نشاط ملاحي واضح سواء من خلال الغوص على اللؤلؤ أو من خلال توسطها البحر وبالتالي مرور السفن التجارية المحملة بالبضائع من خلالها.

دخول آل خليفة البحرين
وأثره في النشاط الملاحي

يرجع نسب آل خليفة إلى العتوب[٨٠]، وهم من جميلة التي هي فخذ من عنزة[٨١] التي تعد من القبائل العربية الكبيرة الشأن في إقليم نجد بشبه الجزيرة العربية[٨٢] . أما في تسمية العتوب[٨٣]، وبهذا الاسم، فقد تنوعت الإشارة إليه في المراجع العربية، ومهما يكن من أمر اختلاف ذلك الاسم، فكل التسميات ترجع إلى الأصل الثلاثي عتب وهو فعل معناه أكثر من الترحال من مكان لآخر[٨٤] . وفي ذلك إشارة إلى تنقلهم وركوبهم البحر قبل دخولهم البحرين[٨٥]، وهذا التنقل والترحال من مكان إلى آخر كانت له أسباب عدة كما تذكر المصادرالتاريخية بأن جزيرة العرب أصابها سنوات جدب عدة خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر، وقد دعا ذلك الجدب الكثير من القبائل العربية للهجرة وبالتالي فإن العتوب من الذين هاجروا إلى شرقي الجزيرة العربية قريباً من سواحل الخليج العربي نتيجة لذلك الجدب[٨٦] . وهناك من يذكر أن سبب الهجرة يرجع إلى فتن حصلت بين القبائل[٨٧] . ومن خلال الوثائق العثملنية ثبت أن العتوب كانوا متواجدين في البحرين منذ عام ١٧٠١م وهذا يعني أنهم تعودوا ركوب البحر وقيادة السفن في وقت مبكر، كما يدل على اهتمامهم بالنشاط الملاحي منذ مدة طويلة، كما تؤكد الوثائق أيضاً أن القوة البحرية التي أسسها العتوب كانت مزودة بأدوات عسكرية كالمدافع والبنادق، ويذكر بأنهم كان لديهم نحو مائة وخمسين مركباً وعلى كل مركب مدفعان أو ثلاثة وعلى كل مركب ثلاثون أو أربعون رجلاً

محارباً يحمل كل منهم بندقية وهذا ما جعلهم قوة بحرية لها أثرها في مياه الخليج العربي وسواحله منذ ذلك الوقت[٨٨] .

وقد نزل العتوب في طريق هجرتهم من الأفلاج[٨٩] إلى قطر التي كانت تخضع لنفوذ بني خالد، ومن قطر تفرقت الأسر العتبية إلى سائر موانئ الخليج العربي لتتجمع من جديد في الكويت[٩٠] إذ أن آل خليفة وآل صباح تركوا قطر وركبوا سفنهم وما إن صاروا في أعماق البحر حتى لحق بهم آل مسلم عند رأس تنورة[٩١] ، فهاجموهم ووقع بينهم قتال شديد كان النصر حليف العتوب وواصلوا إبحارهم حتى نزلوا الكويت[٩٢] وهذا ما يشير إلى استفادتهم من تلك الرحلات والتنقلات في زيادة معرفتهم بأمور البحر نتيجة لارتباط النشاط الملاحي بحركة السفن، فإن المناطق التي انتقل إليها آل خليفة أثرت على ذلك، وأنهم قبل حلولهم بالكويت[٩٣] فإن الروايات المحلية رجحت ثلاثة أماكن نزلها العتوب بعد أن غادروا قطر، ومن أحدها توجهوا إلى الكويت بعد ردح من الزمن، وكان المكان الأول هو خور الصبية الواقع إلى الجنوب من البصرة، والرواية هنا تقول بأن العتوب طردوا من ذلك المكان بناءً على أوامر متسلم البصرة بعد أن مارسوا ضرباً من الاعتداء على القوافل القادمة إلى البصرة[٩٤] . والثاني يفترض أنهم أتوا الكويت عبر الخليج العربي بعد أن طردوا من الساحل الشرقي من القبائل العربية الأخرى[٩٥] .

أما الرأي الثالث فيقول بأن العتوب نزلوا قطر وهم في طريق هجرتهم من الأفلاج، ومن قطر تفرقت الأسر العتبية إلى سائر موانئ الخليج العربي[٩٦] . ومن المرجح بأن العتوب هاجروا من نجد نتيجة الجدب والفقر الذي أصاب مناطقهم وضيق عليهم سبل العيش وبالتالي فإنهم اتجهوا نحو سواحل الخليج العربي صوب البحر ليجربوا حظهم وينالوا من خيراته وهذا ما حصل بالفعل .

وهكذا فإن العتوب قدموا من الجنوب بعد أن أمضوا على ساحل الخليج العربي بقطر نحو نصف قرن بعد هجرتهم من الأفلاج وهي مدة لازمة وكافية للتدريب على ركوب البحر، الذي لابد وأنهم ركبوه في طريقهـم إلى الكويت[٩٧] .

ومهما يكن من أمر فإن العتوب استقروا في الكويت ومارسوا الأعمال التجارية والزراعية، إذ أن سفنهم أصبحت تقوم بنقل البضائع حتى من المناطق البعيدة، وتعاهدوا على تقسيم العمل فيما بينهم واتفقوا على أن يتولى آل صباح مسئولية الحكم[٩٨]، بينما تعهد آل خليفة بإدارة الشئون التجارية وهذا يعود إلى خبرتهم الملاحية وتميزهم بها وقيامهم بالمتاجرة مع المناطق المختلفة، في حين كان العمل في البحر والغوص على اللؤلؤ من نصيب الجلاهمة، وبذلك فقد هيمن العتوب على الشئون السياسية والتجارية في آن واحد[٩٩] ولم يستمر هذا الحلف كثيراً، إذ أنه بعد مضي خمسين عاماً على الاتحاد انفصل آل خليفة من الحلف في عام ١٧٦٦م[١٠٠] وهاجروا إلى الزبارة[١٠١] . لأسباب من المرجح أنها كانت متعلقة بالنشاط الملاحي .

د. عماد جاسم حسن

الهوامش

١ – حسين فوزي النجار، السياسة والاستراتيجية في الشرق الأوسط، الجزء الأول، الطبعة الأولى، القاهرة – مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٣م، ص٦٣٩ .

٢ – الأرخبيل : مجموعة من الجزر وأجزاء الجزر وغيرها من التكوينات الطبيعية المترابطة التي تأخذ مع المياه المحيطة بها شكل وحدة جغرافية واقتصادية وسياسية للانضمام فيها، وللمزيد من التفاصيل عنها أنظر : جابر إبراهيم الراوي، القانون الدولي للبحار وفقاً لاتفاقية قانون البحار العام مع دراسة عن الخليج العربي، ص١١٣ .

٣ – سالم سعدون المبادر، الخليج العربي – دراسة في الجغرافيا الإقليمية ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ١٩٨١م، ص١٣٨ .

٤ – جواد كاظم حطاب الشويلي، جريدة الخليج العربي البصرية ١٩٦٥–١٩٦٧ وقضايا البحرين وعمان والجنوب اليمني ، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية التربية، جامعة البصرة، ١٩٩٩م، وهي غير منشورة، ص٤٦ .

٥ – سالم سعدون المبادر، جزر الخليج العربي – دراسة في الجغرافيا الإقليمية ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٨١م، ص١٥١ .

٦ – جان جاك بيربي، جزيرة العرب ، تعريب نجدة هاجر وسعيد الغز، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، ص٤٢ .

٧ – أنظر خارطة الخليج .

٨ – سالم سعدون المبادر، الخليج العربي – دراسة في الجغرافيا الإقليمية، المصدر السابق، ص١٣٩ .

٩ – حكومة البحرين، المجموعة الإحصائيةلسنة ١٩٦٧م، ص٣ .

١٠ — عبد المجيد مصطفى وعثمان فيض الله، دراسات عن الكويت والخليج العربي، مصر ١٩٦٦م، ص٦٥ .

١١ — Encyclopedia of Islam, vol. I, London, P. 941.

١٢ — Rupert Hay, The Gulf States, The Middle East in Stituta Washington, D.C., 1959, P. 87

١٣ — عمر رضا كحالة، جغرافية شبه جزيرة العرب، المطبعة الهاشمية، دمشق ١٩٤٤م، ص٤٦٣ ؛ كذلك ينظر : المبادر، الخليج العربي، المصدر السابق، ص١٣٨ — ١٦١ .

١٤ — إن أول اسم عرفت به البحرين هو ندوكي الذي ظهر في الكتابات والنقوش الأكادية والسومرية التي عثر عليها في العراق، أنظر : يوسف مروة، عروبة البحرين في التاريخ، مجلة العلوم، بيروت، العدد الأول ١٩٥٩م ص٧٣ .

١٥ — وقبل ذلك أطلق عليها في العهدين البابلي والأشوري اسم دلمون، أنظر : عبد الله بن خالد آل خليفة وعبد الملك يوسف الحمر، البحرين عبر التاريخ، الجزء الأول، البحرين، ١٩٧٠م، ص٢٠ .

١٦ — سليم طه التكريتي، المقاومة العربية في الخليج العربي، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٢م، ص١٨ — ٢٠ .

١٧ — مجيد خدوري، البحرين وإيران، منشورات وترجمة صوت البحرين، العدد الأول، بيروت ١٩٥٣م ص٨ .

١٨ — أوال : اسم صنم كانت تعبده قبائل بكر بن وائل مع قوم من بني عبد القيس، أنظر : ياقوت الحموي، معجم البلدان، الجزء الأول، بيروت ١٩٥٥م، ص٣٤٧ .

١٩ — جان جاك بيربي، الخليج العربي، ترجمة نجدة هاجر وسعيد الغز، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٥٩م، ص١٦٩ .

٢٠ – عبد الله ويلمسن، جولة في الخليج العربي، ترجمة سليم طه التكريتي، دار منشورات البصري، بغداد ١٩٦٢م، ص١٨ .

٢١ – أمين الريحاني، ملوك العرب رحلة في البلاد العربية، الجزء الثالث، بيروت، ١٩٥١م، ص٢٣٦ .

٢٢ – فائق حمدي طهبوب، تاريخ البحرين السياسي ١٧٨٣–١٨٧٠م، منشورات ذات السلاسل، الكويت ١٩٨٣م، ص٢٣ .

٢٣ إبراهيم خلف العبيدي، الحركة الوطنيـــة في البحرين ١٩١٤–١٩١٧م، مطبعة الأندلس، بغداد ١٩٧٦م، ص١٩ .

٢٤ – أحمد محمود صبحي ومحمود علي الداود، البحرين ودعوى إيران، مطبعة عوف، الإسكندرية ١٩٦٢، ص٣٢ .

٢٥ – علي أباحسين، العلاقات التاريخية بين البحرين والهند، البحرين١٩٩٦م، ص١٠٨ .

٢٦ – علي أباحسين، المصدر السابق، ص١٠٩ .

٢٧ – أنور عبد الحليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، الكويت ١٩٧٩م، ص٢٢ .

٢٨ – علي أباحسين، العلاقات التاريخية بين البحرين والهند، مجلة الوثيقة، العدد السابع عشر، السنة التاسعة ١٩٩٠م،ص٧٥ .

٢٩ – محمد متولي، حوض الخليج العربي، الجزء الأول، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٥م، ص٣٠٥ .

٣٠ – Kammerer : La Mer Rouge, L`Abyssinie, T.I. 3e partie, Paris, 1925, P. 205.

٣١ – Belgrave, J.H., Welcome to Bahrain, London, 1970, P. 12.

٣٢ – Ibid, P. 8.

٣٣ – إبراهيم شريف، الشرق الأوسط دراسة لاتجاهات سياسة الاستعمار حتى قيام ثورة ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨م في العراق، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد، السلسلة السياسية، دار الجمهورية، بغداد ١٩٦٥م، ص٢٤ .

٣٤ – محمد متولي، المصدر السابق، ص٢٠ .

٣٥ – محمد صالح ربيع العجيلي، مدن الموانئ العربيةتحليل جيواستراتيجي، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد٢٠٠٢م، ص٢٥ .

٣٦ – طارق فتحي سلطان، العرب والصين في العصور الوسطى، رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة الموصل ١٩٨٠م، ص١٥١ ؛ كذلك أنظر : أنور عبد الحليم، المصدر السابق، ص٢٢ .

٣٧ – محمد متولي، المصدر السابق، ص١٧٥ .

٣٨ – أ. د. كوبرا، جغرافية النقل البحري، ترجمة ربيع عبد الله الملط، القاهرة ١٩٧٥م، ص٣١ .

٣٩ – علي أباحسين، العلاقات التاريخيةبين البحرين والهند، مجلة الوثيقة، المصدر السابق، ص٤٨ .

٤٠ – مؤلف مجهول، السلوة في أخبار الكلوة، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان ١٩٨٠م، ص٨ .

٤١ – أحمد اسماعيل عجاج، العراق في الفترة ٨٦٩-٨٩٢ دراسة في الأوضاع الاقتصادية، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب جامعة الموصل ١٩٨٧م، وهي غير منشورة، ص١١٣ .

٤٢ – جمال زكريا قاسم، عمان وشرق أفريقيا، حصاد ندوة الدراسات العمانية، المجلد الثالث، الطبعة الثانية، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٨٠م، ص١٤٥-١٤٦ .

٤٣ – Dickson, The Arab of the Desert – Pearl stories, (Allen Inwin), London, 1967, P. 49.

٤٤ – Marlawe, Persian Gulf in the 20th Century, London 1962, P. 38.

٤٥ – حسين حميد كريم وحسين هاشم سلمان، جيولوجيا الخليج العربي، منشورات مركز علوم البحار، جامعة البصرة ١٩٨٨م، ص١٠٨ .

٤٦ – التوم الطالب محمد يوسف، تاريخ الخليج الإسلامي منذ الفتح الإسلامي حتى أواخر القرن الرابع الهجري، الجزء الأول، البحرين، المطبعة العصرية، دبي ١٩٨٥م، ص٣٣ .

٤٧ – الأخوار : ألسنة من البحر تتوغل في الأرض اليابسة وتمتد لبضعة كيلومترات ؛ أنظر : محمد متولي، المصدر السابق، ص٣٥ .

٤٨ – محمد صالح ربيع العجيلي، المصدر السابق، ص١٩ .

٤٩ – محمد متولي، المصدر السابق، ص٧٢ .

٥٠ – إبراهيم شريف، المصدر السابق، ص٢٤ .

٥١ – صباح ناجي الموسوي وحسين حميد كريم، مقدمة في الجيولوجيا البحرية، منشورات مركز علوم البحار، جامعة البصرة، مطبعة الحكمة، ١٩٩٩م، ص٥٢٤ .

٥٢ – ج. ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم الجغرافي، الجزء الأول، ترجمة مكتب أمير دولة قطر، ص٢٩٧ .

٥٣ – محمد متولي، المصدر السابق، ص٢٩٨ .

٥٤ – سعدي علي غالب، النقل البحري دراسة في جغرافية النقل، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م، ص١٥٥ .

٥٥ – تتكون الشعاب المرجانية نتيجة عدة أسباب منها قلة أعماق المياه، إذ لا يتجاوز ١٠ أمتار وكذلك وجود الحرارة المناسبة حيث تتراوح بين ١٨–٣٢°، إضافة إلى توفر الأشعة الشمسية والضوء وحركات المياه والتيارات القادمة من الشمال ولمزيد من التفاصيل أنظر : حكومة البحرين، المصدر السابق، ص٤ .

٥٦ – Wellsted, J.R., Travels in Arabia, London, 1838, P. 265.

٥٧ – محمد صالح ربيع العجيلي، المصدر السابق، ص٢١ .

٥٨ – أحمد رمضان شقلية، الجغرافيا الاقتصادية لجزر البحرين، دراسة جغرافية واقتصادية، الطبعة الأولى، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٨٠م، ص٢٧ .

٥٩ – محمد متولي، المصدر السابق، ص٢٨٦ .

٦٠ – إبراهيم شريف، المصدر السابق، ص٢٥ .

٦١ – إلهام محمود كاظم الجادر، البصرة . . دراسة في أوضاعها الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية (١٨٠٣–١٨٦٩م)، رسالة ماجستير مقدمةإلى كلية التربية ابن رشد، جامعة بغداد، وهي غير منشورة، ١٩٩٠م، ص١٩١ .

٦٢ – عبد الكريم محمود غرايبة، مقدمة في تاريخ العرب الحديث١٥٠٠–١٩١٨م، الجزء الأول، مطبعة جامعة دمشق، دمشق ١٩٦٠م، ص٢٥٣ .

٦٣ – فاضل حسين البراك، البحرين لؤلؤة الخليج العربي والأطماع الفارسية، مجلة الخليج العربي، مركز دراسات الخليج العربي، المجلد الرابع عشر، العدد الثاني، ١٩٨٢م، ص١٤ .

٦٤ – فائق حمدي طهبوب، المصدر السابق، ص٢٧ .

٦٥ – أمين الريحاني، ملوك العرب أو رحلة في البلاد العربية، الجزء الثاني الطبعة الثالثة، مطابع صادر ريحاني، بيروت١٩٥١م، ص٢٢٤ .

٦٦ – أحمد رمضان شقلية، المصدر السابق، ص٢٧ .

٦٧ – **Belgrave, Op, Cit,P. 8.**

٦٨ – **Encyclopaedia Britannica, Vol. I, P. 802.**

٦٩ – فاضل حسن البراك، المصدر السابق، ص٢٠ .

٧٠ – سليم طه التكريتي، المقاومة العربية في الخليج العربي، المصدر السابق، ص٥١ .

٧١ – سليم طه التكريتي، الصراع على الخليج العربي، وزارة الثقافة والإرشاد، بغداد ١٩٦٦م، ص٣٣ ؛ كذلك أنظر : إبراهيم العبيدي، المصدر السابق، ص٢٢ .

٧٢ – منصور الجمري، قراءة معاصرة في تاريخ البحرين الحسينية الاثني عشرية، ٢٠٠٢م، ص١ .منشور على الإنترنت على الموقع التالي :

(http://www-vob-org/arabic/ Truth/Truth 39-htm).

٧٣ – ب. ج. سلوت، شركة الهند الشرقية الهولندية، مجلة الوثيقة، البحرين، العدد التاسع، ١٩٥٨م، ص٦٤ .

٧٤ – هيفاء عبد العزيز الربيعي، غزاة في الخليج – الغزو الهولندي للخليج العربي والمقاومة العربية . . دراسة تاريخية، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل ١٩٨٩م، ص٦٨ .

٧٥ – إن الشخص الذي أرسلوه وهو (هيوبوست كوسترس) لم يكن يتمتع بكفاءة عالية .

٧٦ – وثيقة عثمانية، دار الوثائق القومية، القاهرة، محفظة رقم ٢٦٧، عابدين، تاريخها ١٨٣٩/٤/٦ ؛ أنظرها في عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، من وثائق الجزيرة العربية في عصر محمد علي ١٨١٩–١٨٤٠م، المجلد الأول، دار المتنبي للنشر والتوزيع، قطر١٩٨٢م، ص٦٦٠ . وللمزيد من التفاصيل عن التوجهات البرتغالية والعثمانية نحو البحرين : أنظر : صالح أوزبران، الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي ١٥٣٤–١٥٨١، ترجمة وتعليق عبد الجبار ناجي، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٧٩ .

٧٧ – محمود علي الداود، أحاديث عن الخليج العربي، وزارة الإرشاد، بغداد ١٩٦٠م، ص٩ .

٧٨ – السماك محمد أزهر سعيد وهاشم خضير الجنابي، الخليج العربي، الطبعة الثالثة، ١٩٦٨م، ص٣٨٢ .

٧٩ – إبراهيم العبيدي، المصدر السابق، ص٢٦ ؛ كذلك طهبوب، المصدر السابق، ص٥١ .

٨٠ – عثمان بن سند البصري، سبائك العسجد في أخبار أحمد نجل رزق الأسعد، بومباي، مطبعة البيان ١٨٧٩م، ص١٨ .

٨١ – وعنزة قبيلةكبيرة كانت تنتشر في مناطق واسعة وتقسم إلى أفخاذ كثيرة أكبرها جميلةوتنقسم جميلة إلى فصائل أشهرها بنو عتبة . أنظر : فائق حمدي طهبوب، المصدر السابق، ص٣٥ .

٨٢ – Belgreve,Op, cit. P. 129.

٨٣ – العتوب : جمع عتبي وهو حلف يضم أفخاذاً كثيرة تنتمي لعدة قبائل تربطها في الأصل وشائج القربى وتصاهرت فيما بينها وأصبحت تمثل قبيلة العتوب الواحدة، وقبائل العتوب كانت تشكل حلفاً كبيراً من آل خليفة وآل صباح والجلاهمة الذين ينتمون إلى قبيلة عنزةوتصاهرت تلك العوائل ضمن قبيلة واحدة وكانوا يقطنون في منطقة الهدارفي مقاطعة الأفلاج في نجد ثم ارتحلوا عنها مع بداية القرن الثامن عشر واتجهوا نحو سواحل الخليج العربي ؛ أنظر : حسن عبد الله، البحرين وآل خليفة، شباط (فبراير) ١٩٩٩م، بحث منشور على الإنترنت على الموقع :
(http://www.vop.org/arabic/truth/truth39.htm. P. 1

٨٤ – ابن منظور، لسان العرب، بيروت، ١٩٥٥م، ص٥٧٩ .

٨٥ – أنظر خارطة البحرين .

٨٦ – Dickson, H.R. Kuwait and her neighbor, London, 1956, P.26.

٨٧ – Ibid,p.27.

٨٨ – أرشيف رئاسة الوزراء العثماني في استامبول، دفتر المهمة، رقم ١١١، ص٧١٣، من والي البصرة إلى السلطان العثماني بتاريخ ٢١ رجب ١٠١٣هـ الموافق لعام ١٧٠١م ؛ مقتبس من فائق حمدي طهبوب، المصدر السابق، ص٣٨ . وللمزيد من التفاصيل حول تواجد العتوب في البحرين منذ بداية القرن الثامن عشر، أنظر : علي أباحسين، دراسة في تاريخ العتوب، مجلة الوثيقة، العدد الأول، السنة الأولى ١٩٨٢م .

٨٩ – الأفلاج : نظام فريد للحصول على المياه الجوفية، والفلج عبارة عن نفق اصطناعي يمتد أفقياً في الطبقات الصخرية بميل خفيف يساعد على انحدار المياه فيه، وفيه

تتجمع المياه الباطنية بطريق التسرب ثم تتخصر نحو نهايته حيث توجد الأراضي الزراعية التي يراد ريها ؛ محمد متولي، المصـدر السابق، ص٢١١ .

٩٠ – يوسف بن عيسى القناعي، صفحات من تاريخ الكويت، ١٩٥٤م، ص٩٩ .

٩١ – رأس تنورة : وهي منطقة واقعة بين البحرين والاحساء .

٩٢ – محمود بهجت سنان، تاريخ قطر العام، مطبـعة المعـارف، بغداد ١٩٦٦م، ص٦٣ .

٩٣ – أماكن تاريخ هجرة العتوب من الهدار في نجد فليس هناك تاريخ محدود ولكنه ارتبط بهجرة قبيلة عنزة بسبب القحط وذلك في أواخر القرن السابع عشر الميلادي . وللمزيد من التفاصيل أنظر : فائق حمدي طهبوب، المصدر السابق، ص٣٨ .

٩٤ – محمد بن خليفة النبهاني، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، المطبعة المحمودية، الطبعة الثانيةص١٢٨ .

٩٥ – سيف مرزوق الشملان، من تاريخ الكويت، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٥٩م ؛ كذلك أنظر : يوسف بن عيسى القناعي، المصدر السابق، ص٩٩

٩٦ – محمد بن خليفة النبهاني، المصدر السابق، ص١٢٩ .

٩٧ – علي أباحسين، صفحات من تاريخ البحرين وفق الوثائق العثمانية، مجلة الوثيقة، العدد الرابع والعشرون، ١٩٩٤م، ص١٧٢ .

٩٨ – عبد العزيز المنصور وفتوح الخترش، نشوء قطر وتطورها السياسي – دراسة تاريخية، مطابع دار اليقظة، الكويت ١٩٧٧م، ص٣٩-٤٠ .

٩٩ – فتحية النبراوي، الخليج العربي – دراسة في تاريخ العلاقات الدولية والإقليمية، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ت.، ص٢٣٢ .

١٠٠ – فائق حمدي طهبوب، المصدر السابق، ص٤٣ ؛ كذلك أنظر : النبهاني، المصدر السابق، ص١١٩ .

١٠١ – الزبارة : لغة الخوصة حين تخرج من النواة، أنظر : ابن منظور، المصدر السابق، ص٤٠٤ .

يرجح علماء الآثار على أن الجزيرة العربية مهد (الساميين) ومنها نزحوا إلى الهلال الخصيب في زمن لعله منتصف الألف الثالث قبل الميلاد . ويرى بعض الباحثين أن هجرة سامية من جزيرة العرب إلى مصر حدثت في الألف الرابع قبل الميلاد، ويدللون على ذلك أن جزيرة العرب كانت تتمتع بوفرة الأمطار وخصوبة التربة، والمناخ المعتدل، في الزمن القديم . ولا أجدني بحاجة إلى التدليل على ذلك فقد كفانا طائفة من العلماء ومنهم (كايتاني) إثبات أن الجزيرة العربية مهد الساميين .

أقول إذا كانت الحضارة في وادي الرافدين ووادي النيل وما بينهما من أرض الهلال الخصيب هي أولى الحضارات البشرية وأقدمها، ومنها اشتقت أو اقتبست الحضارات في الشرق والغرب وأن (الساميين) هؤلاء من سكان وادي الرافدين ووادي النيل نزحوا من الجزيرة العربية قبل مايزيد عن ستة آلاف سنة . لذا يصح القول أن فجر الحضارة كان من جزيرة العرب التي نزح منها هؤلاء (الساميون) وهم أبناء (سام) ابن سيدنا نوح عليه السلام على ما ورد في (سفر التكوين)[1] ومن هنا نعود إلى مكة المكرمة البلد المقدس وهو في الجزيرة العربية وفيها البيت الحرام الذي بنته الملائكة ثم آدم ، فهو أول بيت وضع للناس ومنها كان منطلق الحضارات لأن هؤلاء الساميين النازحين من الجزيرة العربية أقاموا الحضارات (الأكدية) و(الأشورية) و(البابلية) و(الأرامية) و(الفينيقية) وغيرها . ولابد أنه كانت لهم حضارة عريقة تمثلت في بناء البيت العتيق الذي له أكثر من مفهوم ديني، فهو مركز حضاري حج إليه أول البشر، ومن ذريته من بعده . ولاشك أن في الحج ديناً واجتماعاً واقتصاداً وعلماً ومعرفة وتعارفا وتبادلاً للآراء، وتلك لعمري من مظاهر الحضارة . ومن هنا يتضح أن لمكة الدور القيادي للحضارة الإنسانية منذ ما يزيد على الستة آلاف سنة على ما دونه علماء التاريخ القديم أولاً، ومنذ ما خلق الله أبا البشر آدم عليه السلام، وبنى البيت الذي بمكة على ما ورد في القرآن الكريم ثانياً . ولم يعد البرج المدرج (الزقورة)

الذي وجدت آثاره بمدينة (أريدو) في عهد العبيد من أرض الرافدين هو أقدم بناية دينية في تاريخ العالم، لأنه كما ذكر الأستاذ (طه باقر) يعود في تاريخه إلى سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد . ولما كانت بداية هجرة الساميين كما في مقدمته قد بدأت منذ ما يزيد على الستة آلاف سنة . والكعبة المشرفة قد بنيت منذ القدم فتصبح أقدم بناية دينية في تاريخ العالم .

أقول (لما كان التاريخ توقيتاً وإخباراً للاجتماع البشري، لأن هذا الاجتماع الإنساني إنما هو عمران العالم، فالإنسان مدني بالطبع، وأول عمران حدث في العالم بمكة المكرمة، وقد حدث فيها استقرار وعبادة وكسب وتجارة، وكان لابد من وازع ديني ينظم حياتهم ويمنعهم من التظالم)[٢] . ومن هنا كان العمران البشري عند الأمم التي اعتنقت الديانات السماوية والتي يجمعها الدين الإسلامي وقد عرفه أحد مشايخنا : أنه الدين الذي أنزله الله على عباده على ألسنة رسله، وأن الأمم التي بدلت وانحرفت عن أمر دينها انهارت دولها، وفي عاد وثمود مثال .

ولقد قال إبراهيم عليه السلام : (*رب اجعل هذا البلد آمناً وارزق أهله من الثمرات*) أجل إن الله سبحانه وتعالى استجاب لخليله فجعله بلداً آمناً لمن آمن بالله واليوم الآخر، يجد فيه الخائف الطمأنينة في النفس ويأتيه الرزق من كل الديارات .

ولاشك أن الأمن من عوامل التقدم الحضاري، فإن الأمن نعمة أسبغها الله عز وجل على هذا البلد من دون البلدان، فكان للاستقرار كبير الأثر في النضوج الحضاري لأن العقل البشري يجد مجالاً للابتكار والإبداع والنشاط حيثما يسود الأمن والسلام . وقد اعتبر (ول ديورانت) العوامل النفسية كالأمن في النفوس من عوامل قيام الحضارة وتقدمها وأقسم رب العالمين بهذا البلد الأمين، وبقي وسيبقى كذلك أبد الآبدين .

وهذا تأكيد ودليل آخر على أن فجر الحضارة البشرية كان منطلقه من مكة الإسلام، حيث ساد الأمن فيها وبني أول بيت لعبادة الإنسان لخالقه، فاجتمع الناس حوله منذ أقدم عصور التاريخ .

فذرني والواضعين للنظريات كي أحدثهم حديث الأرقام لعلهم منصفون، فأقول : إذا كان أقدم بيت للعبادة وجده علماء الآثار يعود إلى ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد في مدينة (أريدو) فإن هذا البيت الذي بمكة أقدم منه . فقد ورد في مخطوط (نصيحة الملوك)[٣] المعروف بعمدة المحققين وبرهان اليقين للغزالي لعله أبو حامد قوله : *"من وفاة نوح عليه السلام إلى الآن ستة آلاف سنة"* هذا ما قاله المؤلف الذي توفي في مستهل القرن السادس الهجري، حينئذ مضى على وفاة سيدنا نوح عليه السلام نحو سبعة آلاف سنة . وورد في ذيل (الآثار الباقية عن القرون الخالية) لابن جرير الطبري في تاريخ أبي الفداء[٤] قوله : *"إن الطوفان قد حدث بعد مضي ألفين ومائتين واثنتين وأربعين سنة من هبوط آدم عليه السلام"* .

إذن يمكن تقدير ظهور أبي البشر آدم عليه السلام على الأرض قبل نوح بـ ٢٤٤٢ سنة ومن نوح إلى الآن نحو سبعة آلاف سنة . إن هذا الحساب الذي لا يعلم مفاتيحه إلا الله، ولكن على الأقل يعطينا صورة واضحة ما أمكن ذلك على أن بيت العبادة بمكة أقدم بما يزيد على الخمسة آلاف سنة عن أقدم أثر تاريخي ذكره المؤرخون في التاريخ القديم . فإذا ساروا معنا في هذا القول يصبح البلد الذي هو مكة وفيه أقدم أثر ديني المركز الأول لفجر الحضارة البشرية لأن في هذا البيت أكثر من معنى ففيه عبادة وحوله اجتماع واستقرار وهذا مايطلق عليه بعصور الحضارة الحديثة .

والذي أصبح عندنا أن جرهما قدمت إلى مكة قبل الهجرة النبوية بنحو ٢٥٠٨ سنين أو بنحو أربعة آلاف سنة قبل اليوم وأنهم ساكنوا أم إسماعيل عليه السلام فيها بعد أن جدد بناء الكعبة إبراهيم وإسماعيل فرفع القواعد من قوله

تعالى : *"وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل"* قال الفخر الرازي في تفسيره : وفي مدائن صالح كتابات لبني إسماعيل تعود إلى خمسة عشر قرناً قبل الهجرة كما أوردها الخطيب(٥) .

وانتقل إلى دليل آخر على قدم مكة في التاريخ ودورها القيادي في الحضارة البشرية مما ورد في التوراة والإنجيل . ففي المزمور الرابع والثمانين الفقرة الخامسة والسادسة من العهد القديم ص ٨١٠ أي التوراة على لسان موسى عليه السلام قوله : *"طوبى لأناس عزهم بك طرق بيتك في قلوبهم عابرين في وادي مكة"* . وفي إنجيل متى الإصحاح الحادي والعشرين ص ٣٧ أن يسوع المسيح عيسى بن مريم عليه السلام يقول : *"أما قرأتم في الكتب الحجر الذي صار رأس الزاوية من قبل الرب كان هذا هو عجيب في أعيننا وكذلك أقول أن ملكوت الله ينزع منكم ويعطي لأمة تعمل ثماره"* .

ويعلق الأستاذ (ديورانت) في قصة الحضارة بقوله : *"وإن لم يكن في وسع المسلمين أن يقولوا أنهم حققوا ما قاله عنهم المسيح"*(٦) وأقول أنا أنهم سيحققون ذلك بإذن الله وباتحادهم وتضامنهم وسيجدون من رابطة العالم الإسلامي خير محقق للأهداف الإسلامية القويمة . وأن البيت الذي بمكة ورد في التوراة وفيها : *"طوبى للمسلمين عزهم بك طرق بيتك في قلوبهم عابرين في وادي بكة"* . وهي مكة . وهذا ما يثبت قدم هذا البيت، حتى أن النبي موسى عليه السلام وقد عاش في القرن الثالث عشر قبل الميلاد أشار لأناس طرقوا البيت الذي بوادي مكة فكان عزهم بطرقهم إياه فطوبى لهم .

وذكر النبي عيسى عليه السلام في الإنجيل عن الحجر الأسود الذي صار في رأس الزاوية من قبل الرب عز وجل وبشر عيسى قومه أو لعله يعني بني إسرائيل

أن ملكوت الله سينزع منهم ويعطى لأمة تعمل ثماره والأمة التي ستنزع ذلك الملكوت منهم على قول (ول ديورانت) هي الأمة الإسلامية وأقول : سيحقق الله ذلك إن شاء الله .

دعونا ننتقل إلى قدم مكة ودورها في التاريخ مستندين على أدلة لغوية . أليست اللغات خير ما يحفظ لنا تاريخ أحداث وآثار مدن وأبطال . فالحج لفظ وجد في اللغات السامية العتيقة، وقد ورد حك في العبرانية، وفي العهد القديم أوردها تاج العروس[٧] واللسان ودائرة معارف الأديان، فقال الدكتور جـواد علي : إن لفظة حج وردت في كتابات مختلفة للشعوب المنسوبة إلى سام . وفي هذا ما يدل على قدم البيت المقدس العتيق بمكة . وكان الحج معروفاً عند الأمم القديمة منذ آلاف السنين، له أيام معدودات تقام فيها شعائر دينية ومناسك وعبادات واجتماع وإن اختلفت مظاهـرها بين الأمم وفي مختلف أحقاب التاريخ . وذكر الأزرقي جـ ١/ص١٠ : أن آدم وذريته حج بعد أن فرغ من بنائه .

وبعد، أليس الحج لأول بيت وضع للناس في المسكون من الأرض مظهراً حضارياً لأنه جانب من جوانب الاجتماع الإنساني الذي حدث لأول مرة في التاريخ في أم القرى .

أعود إلى الآثار لعلها تقنعهم فأقول : أن أول خريطة للعالم قبل ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد وجدت ببابل، وقد صورت على الطين، وصورتها اليوم كما رأيتها في قاعة الخرائط بالمتحف العباسي في مدرسة المستنصرية ببغداد، أنها مدورة الشكل وبابل مركزها و(مكا) التي وردت في اللغة البابلية تقع في الجانب الأيسر من صورة المعمور من الأرض أو بمكان القلب من الجسد . ولعل ذلك الاعتبار كما أرى عند بعض الجغرافيين المسلمين كان من تأثير البابليين حينما صور (الاصطخري المتوفى سنة ٢٤٠ هـ) و(ابن حوقل سنة ٣٦٧هـ) و(القزويني

سنة ٦٠٠هـ) صوروا المعمور من الأرض بشكل طائر فاتح جناحيه وقلبه لمكة . ووجدت في خارطة الشريف الإدريسي المتوفى سنة ٥٦٠ هـ المحفوظة في قاعة المتحف العباسي والتي جمع أجزاءها المستشرق الألماني (ملر) نجد مكة المشرفة في مركز خريطة العالم المعروف في عهده . هكذا حفظت اللغة البابلية لفظ مكة ومعناهـا بلغتهـم البيت المقدس . وقد عاش البابليـون في الألف الثاني قبل الميلاد .

وورد في اللسان السبأي ذكر (مكرابا) كمركز تجاري مشهور في العلاقات التجارية بين أهل يمن وأهل مكة . ونحن نعلم أن السبئيين عاشوا في حدود الألف الأول قبل الميلاد . وبحث المحققون في لغة السريان والإغريق فوجدوا (ماكورابا) التي ذكرها بطلميوس اليوناني وقد عاش في المائة الثالثة قبل الميلاد على ما ذكره ياقوت وقانون البيروني . ولا أجدني بحاجة إلى المزيد من الأدلة اللغوية فإنه من غير المعقول أن تحتوي لغة ما على لفظ ليس له مدلول .

وبعد، فإن مكة في التاريخ قديمة ولها قدسيتها في مختلف العصور، واسمها مقرون بالإجلال والتقدير، وأن أول بيت وضع للناس الذي ببكة مباركاً وهدىً للعالمين، وقد سكنت حوله (جرهم) حتى القرن الثالث الميلادي . وعلى أثر انهدام سد مأرب في اليمن نزح الخزاعيون فسكنوا مكة وأصبحت تحت إمرتهم بعد أن أخرجوا جرهماً منها ومنهم (عمرو بن لحي الخزاعي) الذي قال عنه (ابن الكلبي) أنه أول من أدخل الوثنية إلى الجزيرة العربيةمن الشام . وانتقلت الولاية من (خزاعة) إلى أحد أجداد رسول الله ﷺ وهو (قصي) في مستهل القرن الخامس الميلادي من زواج قصي بحبَى ابنة حليل الخزاعي .

بعد هذا العرض التاريخي ثبت أن هذا البيت العتيق قديم في التاريخ وهو أول بيت وضع للناس كما في القرآن والتوراة والإنجيل، وأن فجر الحضارة انبثق من حوله وإن تجاهله المؤرخون وجعلوا منطلق الحضارة في الفروع وتناسوا

أو قل تجاهلوا الأصل الذي انتقلت منه الموجـات السـامية وهو الجزيرة العربية . ومن جوار هذا البيت المقدس في أم القرى بدأ المجتمع الإنساني في الاستقرار والاجتماع فكانت المدينة الأولى فيها . أجل سيعودون بعد هذه الأدلة إلى ما ورد في القرآن الكريم، وحين يدرك العقل البشري الحقيقة فقد وصل إلى كنه تنزيل العزيز الحكيم . إن مكة التي تمك[٨] الجبارين فتذهب نخوتهم فلم يستطع غازٍ ما أن يستعمرها فكفاها الله شر الغزاة وجعل حرمها آمناً . وفي جملة إبراهيم عبرة لمن اعتبر وفي البيت العتيق عتق من الجبابرة . وفي مكة دور قيادي هام حين قام (قصي) جد رسول الله ﷺ فجمع القبائل وسمى مجمعاً أو قريشا، وما التقريش إلا التجميع والتفتيش، جمعهم تحت رايته بمكة، وهذه أول وحدة سياسية اجتماعية واقتصادية للقبائل قبل الإسلام تحت لواء حمله جد أجداد رسول الله ﷺ وهو (قصي) في مكة المشرفة . ووزع (قصي) الوظائف بين القبائل . فظهرت بمكة حكومة تشبه دويلات المدن **City States** التي ظهرت في عصور التاريخ القديم منذ فجر السلالات . وكان لقصي قصر سماه (دار الندوة) وهي أشبه بالمجلس الاستشاري لهذه المدينة أو مجلس الشيوخ، إذ لا يدخلها إلا من بلغ الأربعين من العمر ومن نسل قصي، حيث تحل فيها المشاكل السياسية والاجتماعية .

وكانت له (السدانة) و (الرفادة) وهي جمع المال لتقديم الطعام لفقراء الحجاج وهم ضيوف بيت الله . هكذا جمع قصي السلطات بيده كالسلطة التشريعية وتتمثل برئاسته (دار الندوة) . وله سلطة حربية لأن بيده لواء الحرب، وله سلطة مالية يفرض الضرائب للرفادة ويسقي الحجيج بنقل الماء على الإبل من الآبار لتصب في أحواض من الإدم في الحرم ليشرب منها الحجاج . ولأبناء ابنه (عبد مناف) قيادات التجارات ولهم الإيلاف، وما الإيلاف إلا معاهدات مع الأمم المجاورة ومع رؤساء القبائل التي تمر تجارة أهل مكة في مرابعها .

وقاد أجداد رسول الله ﷺ تجارات العرب من أبناء عبد مناف الأربعة، فمن كانت تجارته مع غيرهم فإن نصيبها في الغالب النهب والخسران . هاهو هاشم جد رسول الله ﷺ يقود القافلة صوب الشام، وذاك عبد شمس للحبشة، والمطلب لليمن، ونوفل لفارس . وازدهرت مكة في عالم الاقتصاد فكأنها فينيسيا أو بندقية العرب كما دعاها بعض المستشرقين فهي سوق الصيرفة أو البورصة تفرض سعر العملة الذي تراه مناسباً لقيمة المعدن النادر فيه إذ استغلت موقعها الجغرافي الوسط والنزاع التاريخي بين الفرس والروم لتنمية اقتصادياتها حتى كان لها دور قيادي في تاريخ التجارة قبل الإسلام .

وتمسك جد رسول الله ﷺ بباب الكعبة متحدياً أبرهة وفيله وقومه فأصاب الله أهل الفيل بنقمة جعلتهم كعصف مأكول، فأعظمت القبائل في عبد المطلب موقفه في شرف الحفاظ على هذا البيت العتيق .

أرأيتم كيف كان لمكة الدور القيادي في التاريخ : ففي مكة الإسلام نزل به الروح الأمين على رسول العالمين محمد ﷺ لينقل الناس كل الناس من جهل وجاهلية بالإسلام إلى علم وهداية : *"اقرأ باسم ربك الذي خلق"* آية العلم تنزل في مكة . ودار الأرقم على الصفا مدرسة أولى في الإسلام، ومسجد المصطفى أول مدرسة جامعة في التاريخ الإسلامي حلقت حلقات العلم . والحرم المكي الشريف استقبل طلاب العلم من الصين شرقاً إلى بحر الظلمات والأندلس غرباً . ولا أجدني موغلاً في الدور الثقافي لمكة فإن آلاف المخطوطات التي ألفها علماء الإسلام والتي لوعرض بعضها على جامعات اليوم لنال مؤلفوها أعلى الألقاب العلمية . إنها خزانات الكتب في الخافقين شرقاً وغرباً وهي اليوم تكوّن العمود الفقري لبحوث الباحثين المعاصرين . وتلك لعمري أصالة خلفتها حضارة إسلامية تذكرنا بأن علينا واجباً نستلهمه من أمس تليد لنبني، لنتعلم ونعمل كما فعلوا لمستقبل زاهر . ولا أحتاج إلى دليل إذا ما قلت أن ما كتب عن تاريخ

الحرمين الشريفين من مخطوطات، وما طبع منها يفوق ما كتب عن أي بلد آخر، ونظرة إلى فهارس كتب المكتبات لا في الحرمين فحسب بل وفي خزانات الكتب الشرقية والغربية نجد خير شاهد على ما نقول . أجل يحق لنا القول أن القيادة الفكرية بدأت في التاريخ الإسلامي من الحرمين الشريفين .

وبهجرة رسول الهدى ﷺ إلى دار الهجرة انتقل الدور القيادي إليها وإن احتفظت مكة بحرمها الشريف بمركزها الثقافي، فإن (معاذ بن جبل) ﷺ درس بمكة قبل أن يتولى القضاء في اليمن . ومعاذ أول قاض عينه رسول الله ﷺ

في اليمن وأجازه على ذلك، وهو الذي كان المعلم للقرآن والفقيه في الدين بمكة المكرمة، فقد خرج رسول الله ﷺ إلى حنين فاستخلف معاذاً إماماً وفقيهاً بمكة، و(عتاباً) أميراً عليها . وظلت القيادة الفكرية والسياسية طيلة الثلث الأول من القرن الأول الهجري للمدينة المنورة ومكة المكرمة، فأقبل طلاب العلم ليأخذوا الحديث عن الحرمين الشريفين وهم أهل الأثر عن سيد البشر ﷺ . وفي التفسير لنا في (ابن عباس) ﷺ دليل على أن كثيراً من علماء التفسير عيال على ابن عباس ومدرسته . أجل لتفخر أم القرى بابن عباس وطلابه ما شاءت . وإذا قلنا عن التاريخ وتدوينه فهو مدين لابن إسحق والواقدي والمتقدمين من طبقات المؤرخين الذين دونوا السيرة والمغازي وهم من أهل الحرمين فلهم دورهم القيادي في تدوين التاريخ، لأن كتب التاريخ اليوم والأمس في جوهرها لا تخرج عن كتب المتقدمين لأن فيها العنصر التاريخي المتين، ومن جاء بعدهم إما شرحها أو اختصرها من زمن ابن هشام إلى ابن سعد والطبري وابن كثير ومن المتأخرين العقاد في عبقرياته وعبد السلام هارون في تهذيبه وبنت الشاطئ وطه حسين وغيرهم .ومن دوافع التقدم العلمي عند المسلمين الدافع الديني، فقد تقدم علم الفلك والجغرافيا لأسباب منها معرفة اتجاه القبلة بمكة المكرمة والتثبت من أوقات الصلاة التي فرضها الله ﷻ في هذا البلد

الأمين، ولمعرفة منازل القمر وهلال رمضان والعيدين . وكان للرحلة في طلب العلم ولاسيما الحديث أثر في معرفة المسالك والممالك . وللحج إلى بيت الله الحرام وزيارة المصطفى ﷺ له كبير الأثر في معرفة المسالك في الدول مما وسع المعرفة الجغرافية . ولابد من الإلمام بثروات البلاد المفتوحة لاستيفاء الجزية والخراج ومعرفة العوامل الجغرافية المؤثرة فيها . كل ذلك وغيره كان من الأسس الأولى التي وضعت في عهد الخلافة الراشدة في المدينة المنورة .

وبعد، أليس للبلد الأمين ولدار الهجرة كبير الأثر في شحذ همم الرجال ومنهم عاملون بعلمهم وطلاب علم يشدون الرحال لمعرفة مواقع الغزوات والرصد ومسح الأراضي ووضع الأعلام لمسالك الحجاج بين مكة وخراسان وبخارى وسمرقند شرقاً إلى أقصى المغرب والأندلس غرباً .

هاهو التاريخ يحكي سير الخلفاء والأمراء والسلاطين وهم يوجهون عنايتهم للعلم والعلماء فينظمون البلاد المفتوحة والطرق المؤدية إلى مكة كابن الخطاب والوليد والمهدي والرشيد وزبيدة وعبد المجيد . وكانت الديار المقدسة القلب النابض بالحياة لكافة الأمصار الإسلامية أيام ثلاثة من الخلفاء الراشدين .

أجل إني بحثت فوجدت العلماء الأجلاء –إلا نادراً منهم– قد جعل بداية علمه أو منتهى أجله أو زاده بسطة من العلم فتعلم، أو علَم في الحرمين الشريفين . أقول بأنني مدين لهذا الحرم المكي في أسس دراستي الأولى في مدرسة أسسها بمدينة (بالزبير) من أرض العراق شيخ من شنقيط وعالم جليل نال من علم الشيخ شعيب المغربي ما نال في الحرم المكي ثم تخرج منه ليتجه صوب الشمال فيعلم في الإحساء وفي عنيزة، وفي الزبير بنى صرحاً للثقافة ومدرسة خرجت ولازالت تخرج ما شاء الله منذ نحو نصف قرن انتشروا في الأرض . يرحم الله علماءنا العاملين في سائر ديار المسلمين .

ويأتي دور مكة القيادي في يوم يهدد العالم بعضه بعضاً بعد أن ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس وتبدلت المفاهيم الإنسانية، فالقوي يزدري الضعيف ظلماً وبهتاناً، والإنسان يقتل الإنسان بسبب المادة أو حباً للسيطرة البهيمية، وعبدت الناس المال فاكفهر جو الحق وهدِّرت الفضيلة وقدِّمت قرباناً للرذيلة فلم تعد تجد إلا شبحاً للفضائل ولا للمثل الإنسانية إلا أثراً بعد عين . هنالك يستصرخ العقل الفعال في كل مكان ويستغيث أصحاب العقول النيرة باسم الواحد الأحد وباسم الإسلام وباسم محمد رسول الله ﷺ

أن يغيثوا البشرية المعذبة في أيام احتضارها . ومن مكة المكرمة يتطلع الناس لمن يخرجهم من سطوة المادية إلى روحانية الإسلام وعدله، ينتظرون الدعاة الموحدين . أجل وتلبي مكة الإسلام منادي التوحيد فتهرع ممثلة برابطتها الإسلامية التي جمعت الناس على التقوى من كل جنس وكل لون لتؤدي رسالتها، وهنا يتضح دور مكة القيادي للمسلمين في التاريخ المعاصر لتعيد مجدها الذي كانت عليه منذ نحو أربعة عشر قرناً لتخلص الإنسانية البائسة المستغيثة من براثن المادية وتخرجها إلى دعوة الإسلام برسالته الخالدة .

مرحى للمؤمنين المخلصين لدعوة الإسلام وهم يدعون الناس كل الناس في كل زمان ومكان، ومرحى لرابطة عالمية إسلامية وهي تؤدي رسالتها نحو المسلمين في كل مكان والله الهادي إلى سواء السبيل .

الهوامش

١ — سفر التكوين، ١٠٢ ول ديورانت، قصة الحضارة، جـ ٢، ص٩ .

٢ — ابن خلدون، المقدمة .

٣ — مخطوط نصيحة الملوك، للغزالي المتوفى سنة ٥٠٥، تحت رقم ٧٨ بمكتبة الحرم المكي .

٤ — أبو الفداء، تاريخه، ص٩ .

٥ — محيي الدين الخطيب، الزهراء، جـ ٧، مجلد ٥، ص٤٦٨ .

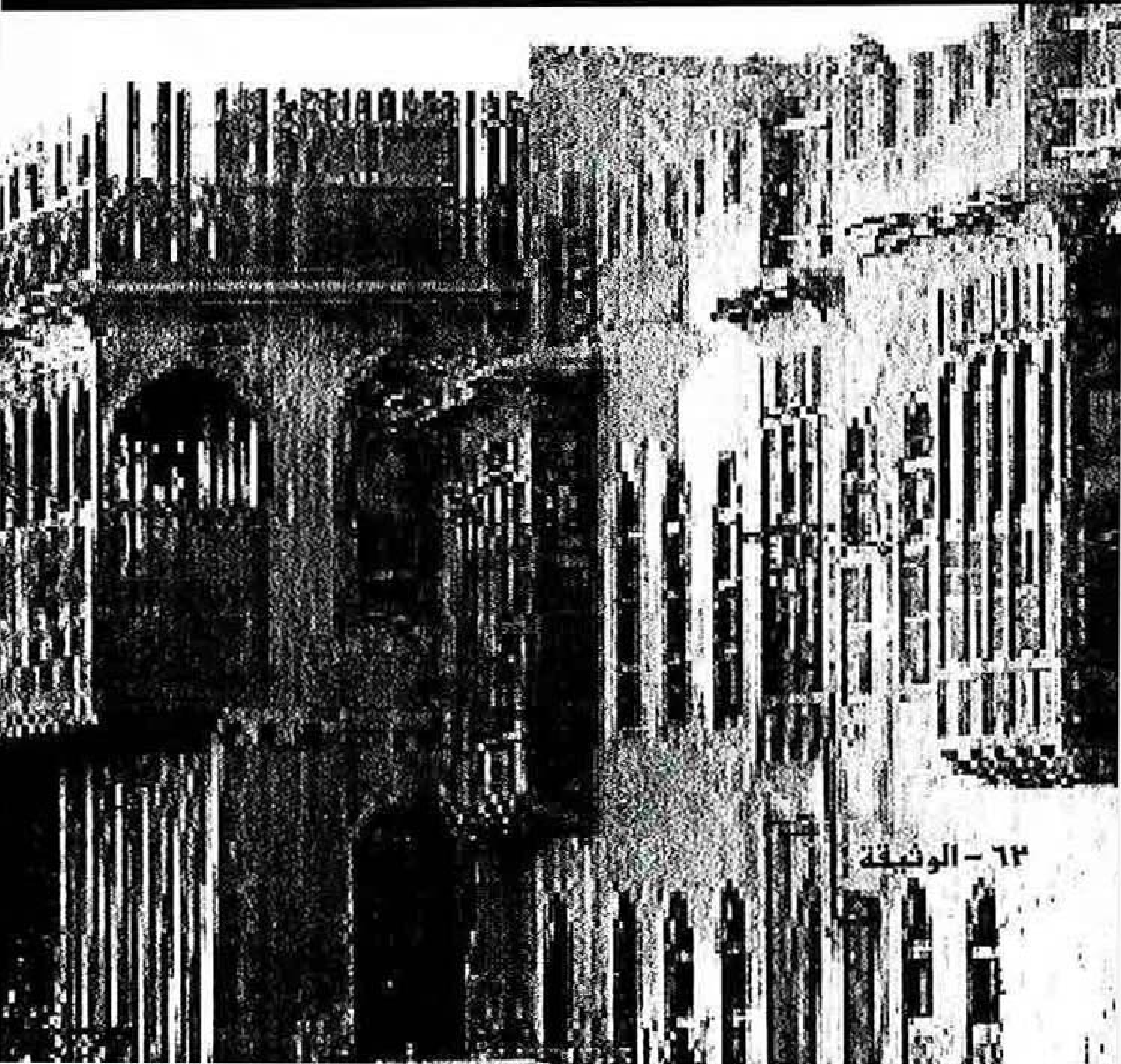
٦ — ول ديورانت، قصة الحضارة، جـ ٢، ص١٩-١٩٦٣ .

٧ — جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ ٥، ص٢١٤ ؛ وتاج العروس، جـ ٢، ص١٦ ؛ ودائرة معارف الأديان، جـ ١٠، ص٢٣ ؛ ولسان العرب، جـ ١٣، ص٤٨ .

٨ — أي تهلكهم .

التحولات الاجتماعية في

بقلم الدكتور عبد الحكيم غنتاب الكعبي



٦٣ - الوثيقة

المدينة العربية الإسلامية

في القرن الأول الهجري / السابع الميلادي



البصرة أنموذجاً

تشكل المدينة وتطوراتها الاجتماعية والاقتصادية والفكرية الوحدة الحيوية والجزء الفعال من حركة التقدم الحضاري لأي مجتمع من المجتمعات. وقد انقسم المؤرخون والباحثون الاجتماعيون في حقل الدراسات التمدينية في توجهاتهم ونظرياتهم إلى اتجاهين بارزين:

الأول: اتجاه يضع الجوانب الوصفية للمدن والظروف الخارجية كأساس لدراسة العينات. والتركيز وفق هذا الاتجاه يكون على التنظيمات الاجتماعية دون محاولة تتبع الامتدادات التاريخية لتلك المدن، ودون الولوج إلى داخل المدينة لتشخيص الصعوبات والأزمات التي تواجهها.

الثاني : اتجاه يعرف بالدراسات البنيوية للتمدن، وهو اتجاه يأخذ بنظر الاعتبار مجمل العوامل المحيطية والبيئية للمدينة، مع التركيز على العوامل الاجتماعية والاقتصادية والتعمق في دراسة المتغيرات والتوترات التي تشهدها المدن وربطها بتلك العوامل وتطورها[١] .

لقد احتلت المدينة العربية الإسلامية في حضارة العصر الإسلامي الوسيط مكانة ريادية متميزة، حتى صارت من أهم مراكز القوة في ذلك العصر، ولا نكون مغالين إذا قلنا : أن نشوء شبكة من المدن الجديدة في تلك الحقبة هو الذي منح العالم الإسلامي الجديد هيكله الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، وأن التاريخ العربي الإسلامي خلال قرونه الثلاثة الأولى كان تاريخ مدن وأمصار كالبصرة والكوفة وبغداد ودمشق والقيروان . ويعلق موريس لومبارد على ذلك بقوله : "لقد كانت أرجحية المدينة في العالم الإسلامي بين القرنين الثامن والحادي عشر"، – الثاني والخامس الهجريين – هي الظاهرة العظمى في تلك الفترة، فبين سمرقند وقرطبة كانت الحضارة الإسلامية حضارة متماسكة بشكل مدهش، مع حركة واسعة من انتقال الناس والبضائع والأفكار، حضارة توفيقية أو تركيبية فرضت نفسها فوق أرضية إقليمية ريفية أو بدوية[٢] . ويقول كلود كاهن في إشارة إلى ظهور المدن الإسلامية الأولى كالبصرة والكوفة : "إن التوسع النسبي في العمران داخل المدن الإسلامية، قد بهر المؤرخين فدفعهم أحياناً إلى المبالغة والإسراف . والحق أن الفتوحات العربية – حيثما لم توجد حركة عمران سابقة مزدهرة – قد صاحبها حركة إنشاء مدن جديدة كانت في بادئ أمرها معسكرات بدائية ثم سرعان ما تحولت إلى حواضر ناشطة"[٣] .

إن الغرض الذي نرمي إليه من خلال هذا البحث هو محاولة الكشف عن مراحل التحولات الاجتماعية وظروف الانتقال من البداوة إلى الحضارة في واحدة من المدن الإسلامية المهمة، بل هي أول مدينة عربية تعيش تجربة

التمدن والاستقرار خارج شبه جزيرة العرب، في مرحلة مفصلية من التاريخ الإنساني هي القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي الذي شهد ظهور الإسلام واتساع دولته من حدود الصين حتى أواسط أوروبا .

ظهور البصرة :

من المعروف أن البصرة نشأت استجابة لضرورات عسكرية بحتة تطلبتها عملية فتح العراق في العقد الثاني من القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، واحتفظت بصفتها تلك على مدى قرن من الزمان تقريباً، إلا أن نهوض البصرة السريع، وثراءها بعد فقر، وتوسعها السريع وتضاعف عدد سكانها على الرغم من كل الظروف العصيبة والأزمات السياسية والاجتماعية التي مرت بها، يطرح على الباحث الإشكالية الآتية :

*** ما الذي تهيأ لتلك النواة العسكرية المغلفة بجدار سميك من البداوة، والمحاطة بظروف بيئية غير ملائمة، بأن تتوسع بهذا الحجم، وبهذه السرعة ومن ثم تشهد تحولات اجتماعية كبيرة على طريق التمدن والاستقرار خلال قرن واحد بعد تأسيسها ؟**

يكاد يتفق معظم الباحثين والمؤرخين من المهتمين بالدراسات التمدينية بأن ظهور البصرة كان ظهوراً عفوياً، فيقول عنها المستشرق الإيطالي كايتاني" أن البصرة هي المدينة التي تولدت من ذاتها، ولضرورة في نفسها"[4]، ويصنفها موريس لومبارد بأنها كانت واحدة من مدن الفطريات[5] [الفطرية] التي نشأت وتمت سريعاً على عاتق أعداد من العرب المهاجرين إليها من شبه الجزيرة العربية ومن معتنقي الإسلام الجدد من الموالي، وأشخاص من أهل الكتاب متمتعين بحماية الدولة — أهل الذمة — وبعد ثلاثين عاماً فقط من تأسيسها

أصبحت تضم أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ نسَمة[٦]، بينما يعد الأستاذ هشام جعيط ظهور البصرة ونموها السريع ظاهرة مازالت غامضة، فهي ظهرت بصفة عفوية نسبياً، متواضعة في الأصل، ولم تؤسس بفعل عمل منظم ومخطط له[٧]، بل كانت ثمرة لعفوية لم يجر السيطرة عليها تماماً، وبفضل تلك العفوية حصلت البصرة على قدرة كبيرة على التطور خلافاً للكوفة – مثلاً – التي بقيت حبيسة نشأتها المنظمة جداً، والمرتبطة كثيراً بالحرب وبمركز الحكم[٨] . ولابد من التساؤل والبحث عن تلك القوى الكامنة وراء ذلك النمو السريع والمذهل لمدينة مثل البصرة، وعن ماهية العوامل التي أفرزته، سيما وأن تطور المدينة لم يمر بسلام، ودون عوائق وصعوبات جمة، من أيامها الأولى، فضلاً عن رداءة ظروفها البيئية – الماء والتربة والمناخ – وفقر المدينة وقلة مواردها خاصة في سنواتها الأولى[٩] . فما هي ظروف تأسيس البصرة وما هي ملامح التحولات الاجتماعية فيها ؟

إن الشروط التي شدد عليها الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ عند إعطائه الإذن لعتبة بن غزوان [أمير الجيش ومؤسس البصرة] بالإقامة الدائمة واختيار المكان، تؤكد المبررات العسكرية لظهور المدينة في مرحلتها التأسيسية، فقد اشترط الخليفة أن تكون الطرق وخطوط الاتصال بين الموضع المنتخب للمدينة ومركز الخلافة (في الحجاز) سهلة وميسورة لضمان عملية وصول الإمدادات والاتصالات الأخرى، فضلاً عن مطابقته لسياسة العرب العسكرية آنذاك في مسألة الانسحاب إلى الصحراء عندما يواجه المقاتلون العرب أية مستجدات أو صعوبات عسكرية تدفعهم إلى الانسحاب الاضطراري، وكان في مقدمة تلك الشروط أن يكون موضع المدينة الجديد على طرف الصحراء، ولا تفصله عن المدينة [العاصمة] أية حواجز مائية كالأنهار وغيرها[١٠]، وقد تجسدت هذه الشروط بوضوح في اتخاذ كل من البصرة والكوفة[١١] . وربما كان في ذلك، أيضاً، حساباً للعوامل النفسية بالنسبة للمقاتلين العرب، بحيث تتوافر لهم

بيئة طبيعية يمكنهم التكيف معها وتكون مقاربة إلى حد ما لظروف حياتهم وبيئتهم السابقة[١٢]، فضلاً عن ضمان عدم تعرض الجند للتطويق والعزل من قبل قوات العدو، وليكون مكاناً يضم المقاتلين فحسب، لأن المقاتلين من عتبة أتوا البصرة دون نسائهم، فيذكر ياقوت أنه كان بين جماعة عتبة التي بلغ عددها ستمائة، ست نساء فقط[١٣]، وكانت البداية متواضعة لهذا المخيم الذي تكون من الخيام والقباب والفساطيط ولم يكن فيه أي بناء[١٤] وسنجد أن الصفة العسكرية للمدينة ظلت ترافق تطورها لقرن من الزمان بعد تمصيرها .

سكان البصرة بعد الفتح :

العـرب

تم تحديد سكن المقاتلين العرب الذين استوطنوا البصرة منذ تأسيسهاوفقاً للنظام القبلي، وذلك مراعاة لما كانت عليه طبيعة النظم السائدة في شبه جزيرة العرب والتي كانت قائمة على أساس القبيلة، فقسمت البصرة إلى خطط سكنت كلاً منها قبيلة وسميت كل خطة باسم القبيلة التي سكنتها، وقد احتفظت هذه الخطط بأسمائها لمدة طويلة، ويبدو أنه كان هناك نوع من التوازن أو المطابقة بين الخطة والقبيلة في بداية التأسيس، غير أن هذا التوازن اختل بمرور السنين بسبب التزايد المتسارع لعدد السكان نتيجة الهجرة الوافدة، وينسب إلى الوالي زياد بن أبيه (٤٥-٥٣هـ / ٦٦٥-٦٧٣م)[١٥] التنظيمات السكانية الكبرى في المدينة، فهو الذي جعل البصرة خمسة أخماس يضم كل منها عددا من العشائر، وهذه الأخماس هي :

- **أهل العالية** : وهم أهل الحجاز، من الأسر الإدارية التي نزحت إلى البصرة قبل سنة ٤٠ هـ، وكان بعضهم من أقدم مقاتلة البصرة، وبرز فيهم

رجال كانت لهم مكانة متميزة في المدينة، وخاصة الثقفيين الذين كانت تربطهم صلة نسب بأبرز ولاة البصرة في القرن الأول (زياد والحجاج) وقد ساعدت هذه الصلة على توطيد مكانتهم[١٦].

- **الأزد** : كانت هذه القبائل قد سيطرت منذ زمن بعيد في البصرة ومن هؤلاء أزد عمان، وقد طبعوا البصرة بطابعهم الخاص[١٧]، إذ اشتهر الأزد بخبرتهم الواسعة في ميدان التجارة والملاحة.
- **بكر بن وائل** : وهم مجموعة ربعية (من ربيعة) نشيطة، كانوا حراساً لطريق الحج من البصرة إلى مكة، كما كانوا يقومون بحراسة الطرق والقوافل التجارية من شبه جزيرة العرب حتى خراسان وبلاد الترك[١٨].
- **تميم** : إحدى القبائل الكبرى اتي هاجرت إلى البصرة منذ بداية تأسيسها وظهر منها عدد من الرجال الذين شغلوا مناصب إدارية مهمة، وهي تلي الأزد من حيث العدد، ولكنها من الناحية الاجتماعية منقسمة انقساماً عميقاً بين دارم وحنظلة، وقبيلة دارم، التي منها الأحنف بن قيس الشخصية البصرية المعروفة، ذات ميل ارستقراطي اتخذت من الفرس الأساورة موالي، أما حنظلة فقد اتخذت أتباعها من الطبقات الدنيا كالسيابجة والزط[١٩].
- **عبد القيس** : وهي أقل القبائل عدداً، والمعلومات عن خططها وعشائرها في البصرة قليلة جداً[٢٠]، ويبدو أن أفراد هذه القبيلة كانوا يتداخلون في السكن مع غيرهم من القبائل، وهذه الجماعة الربعية كانت في الأصل جماعة بحرية جاءت من البحرين، وقد تم لها السيطرة على الخليج العربي[٢١] بحكم خبرتها الواسعة في ميدان الملاحة والتجارة البحرية.

واستناداً إلى أصول هذه القبائل وخلفياتها البيئية والثقافية يمكننا القول أنه وجد في البصرة مجتمع عربي ينتمي إلى عالمين أو نمطين حضاريين مختلفين نسبياً هما :

الأول : هو عالم سكان المدن والمناطق الأقل تشبعاً بروح البداوة، وقد شكل هؤلاء القوة الفاعلة والمؤثرة في حياة المدينة، والتحكم بمجريات الأحداث فيها، وتمثل عناصر هذا العالم :

* **العشائر** التي كانت ديارها في الحجاز (أهل العالية)، من سكان المدينة (العاصمة)، ومن أهل ثقيف والطائف، ومنهم كانت الجماعة السياسية الحاكمة والقادة والموظفون وأصحاب المناصب الإدارية في البصرة، وكانت هذه المجاميع على الرغم من قلة عددها تمسك بزمام الأمور، ومنهم كان الولاة الذين لعبوا الدور البارز على صعيد تمصير المدينة، وظهور التحولات الكبرى في المراحل الأولى من تاريخها .

* **العشائر** التي كانت ديارها في الأطراف الشرقية من شبه الجزيرة وسواحل الخليج العربي (بكر، عبد القيس، حنيفة، أزد عمان)، وكان أغلب هؤلاء يمارسون الزراعة والملاحة، ومنهم من القبائل التي ترجع أصولها إلى اليمن، ورثة الحضارات المتكاملة التي عرفت نظم الدولة، ونظم الري المتطورة، والنشاط التجاري الواسع براً وبحراً، وقد أسهم استقرار هذه المجموعات في البصرة في نمو النشاط التجاري والملاحي مع بلدان المحيط الهندي والشرق الأقصى .

* **أما النمط الثقافي الثاني** في المدينة فقد كان متمثلاً في القبائل التي جاءت من أواسط نجد (تميم وعامر وأسد) فضلاً عن العشائر الأخرى والحلفاء، وهم قبائل رحل، رعاة وبدو من الطراز الأول، وقد كانت

لهم مساهمة فعالة في الحوادث الكبيرة في البصرة، كما شغلت المدينة ولعقود طويلة بمشاكلهم ونزاعاتهم الداخلية .

* **العناصر غير العربية** : إن رغبة العرب في الحفاظ على شخصيتهم بابتعادهم عن الاختلاط بالشعوب التي أخضعوها لم تكن دائما ممكنة التحقق على أرض الواقع، خاصة في مدينة كالبصرة، فقد تأكد للمستوطنين الجدد من العرب ضرورة الاستعانة بكل أطياف الحرفيين والمهنيين الذين لايمكن أن تستقيم حياة المدينة بدونهم وهي تعيش مرحلة النمو والتطور السريع، فقد كانت هناك حاجة ماسة إلى البنائين والعمال الماهرين والفنيين لشق القنوات وتشييد الجسور، وكان هناك توسع مستمر في استصلاح الأرض، وفي امتلاك الأراضي الزراعية حول البصرة[٢٢] وفي منح القطائع لرجالات الدولة البارزين[٢٣]، إن ذلك أوجد حاجة كبيرة إلى العمال الزراعيين، وليس هناك من سبيل لتوفير هذه الأعداد الكبيرة منهم إلا عن طريق تشجيع هجرة هؤلاء من المناطق المجاورة إلى البصرة . وخلال سني الفتوح الإسلامية في المشرق كان سيل أسرى الحرب والعبيد لا ينقطع عن المدينة، كما كان ميدان النشاط التجاري المتنامي في المدينة يفتح مجالات واسعة لكل ألوان المهارات والمهن، هذا إضافة إلى أن العرب ورثوا الجهاز الإداري الساساني بموظفيه وعماله الذين كان أغلبهم من الفرس . إن كل هؤلاء من عناصر فارسية مختلفة الأسماء والأصول، وهنود من عالم المحيط الهندي الواسع، وزنوج وغيرهم توافدوا على البصرة ومن جهات مختلفة وأقاموا فيها لأسباب اقتصادية، ومع نمو وازدهار البصرة كانت أعداد هذه الجماعات تزداد، وصاروا يشتركون اشتراكاً فعلياً في حياة البصرة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، حتى صارت كثرتهم مصدر قلق للسلطة خاصة في العصر الأموي الذي كان متشدداً في هذا الجانب القومي بالذات، فيذكر أن معاوية بن أبي سفيان دعا الأحنف بن قيس وسمرة بن جندب وكليهما من البصرة ليقول لهما: "إني رأيت هذه الحمراء قد كثرت،

وأراها قد قطعت على السلف وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان . " وحدثهما أنه ينوي قتل نصفهم، تاركاً نصفهم الآخر للقيام على الأسواق وعمارة الطرق، وقد وافق سمرة على خطة معاوية بقتلهم، أما الأحنف بن قيس فقد دافع عنهم وابتغى لهم السلامة، وقد أخذ معاوية برأي الأحنف، ويبدو أنه اكتفى بنقل بعضهم إلى مناطق أخرى[٢٤]، من جانب آخر ضمنت كثرة هؤلاء في المدينة استمرارية دوران عجلة الحياة الاقتصادية بكل فروعها وأنشطتها دون توقف حتى في أكثر الأوقات اضطراباً، حين كانت القبائل مشغولة في الحروب والفتن والمشاكل الداخلية[٢٥] .

لقد استفادت هذه المجموعات المختلفة من فرص الحماية التي توفرت لها في مرحلة مبكرة من تأسيس المدينة، فوضعوا أنفسهم تحت حماية أفراد أو عشائر، متمتعين بالمنافع التي يوفرها لهم الولاء للسيد أو للعشيرة . ففي مجتمع مثل مجتمع البصرة قائم على العصبية والتحزب، حيث الغلبة والسيادة للعرب، كان نظام الولاء أنجع السبل لتحقيق ما يصبو إليه غير العربي . وكان اتصال هؤلاء الأجانب بالعرب عن طريق الولاء يتفاوت من حيث الزمن بين الجدة والقدم[٢٦]، كما يتفاوت في طبيعة العلاقة بين السيد والمولى، فقد ظهر في البصرة، فضلاً عن موالي العتاقة وأسرى الحرب، نوع آخر من الموالي الأعاجم الذين سكنوا البصرة بإرادتهم وارتبطوا بصفة الولاء بإحدى العشائر أو بأحد الأفراد باختيارهم[٢٧] .

وبالإضافة إلى الخدم والرقيق والموالي من الذين اصطحبتهم القبائل العربية معها عندما بدأت تستقر في البصرة، وكانوا من مختلف الأصول والمناشئ، استوطنت البصرة عناصر أجنبية من جنسيات مختلفة يأتي في مقدمتها بعض من القوات الساسانية التي استسلمت للجيش العربي في جبهة البصرة، فقد أسلم في ولاية أبي موسى الأشعري حوالي أربعة آلاف من

الأساورة، وكان هؤلاء يشكلون فرقة عسكرية في الجيش الساساني كانت تحارب في الأهواز، وقد أبرم أبو موسى معهم اتفاقاً منحهم فيه نفس حقوق العرب، فأعطيت لهم الخطط، وجعل لهم العطاء والأرزاق، على أن يقاتلوا إلى جانب العرب، وقد حافظوا على وحدتهم حتى دخلوا في تحالف مع قبيلة سعد من تميم[٢٨]، وهناك من اعتبر أن أصل هؤلاء الأساورة من السند[٢٩] . وقد ازداد عددهم بعدئذ بمن انضم إليهم من الجنود الساسانيين الهاربين[٣٠] .

وقد تحدثت المصادر عن وجود فئة أجنبية أخرى مهمة في البصرة وهم السيابجة الذين أوكلت إليهم في بعض المراحل مهمات إدارية ومهنية، فقد كلفوا بحراسة بيت المال والسجن ودار الإمارة، ولخبرتهم في مجال البحر والملاحة أخذوا يخدمون بعدئذ على ظهر سفن الأسطول الإسلامي في الخليج العربي[٣١] وهناك من اعتبرهم من أصل فارسي[٣٢] والمرجح أنهم من جزر المحيط الهندي، وتحديداً من جزيرة الزابج (سومطرة) وهو ما ذهب إليه الأب أنستاس الكرملي[٣٣] هاجروا إلى الهند، ثم إلى العراق والخليج العربي حيث ظهروا قبل الإسلام، ثم استخدمهم الساسانيون كقوة لحماية السفن من غارات القراصنة[٣٤] وقد جرى تجنيدهم بعد ذلك في الجيش الساساني وبعد انتصار العرب وتأسيس البصرة، استقر هؤلاء فيها وتحالفوا مع بني حنظلة من تميم[٣٥] .

وهناك قوة أجنبية أخرى هم الزط الذين ترجع أصولهم إلى بلاد السند وكانوا قد استقروا على سواحل الخليج العربي قبل الإسلام، وبعد الفتح دخلوا الإسلام وأسكنهم أبو موسى الأشعري البصرة، وتحالفوا مع بني حنظلة من تميم أيضاً[٣٦] وكان الحجاج بن يوسف الثقفي قد جلب أعداداً كبيرة أخرى منهم من بلاد السند ومعهم دوابهم وأسكنهم منطقة البطيحة لملاءمة هذه البيئة

لظروف حياتهم السابقة[٣٧] فغلبوا على البطيحة وتكاثروا فيها . [وقد قاموا بعدئذ بحركة تمرد عدائية عنيفة ضد المجتمع والدولة مطلع القرن الثالث الهجري والتي أقلقت مدينة البصرة ونشرت الذعر والخراب فيها حتى تم القضاء عليها سنة ٢٢٠ للهجرة[٣٨] وكان عدد الزط آنذاك ٢٧,٠٠٠، منهم ١٢,٠٠٠ يحملون السلاح[٣٩] وقد جرى نقلهم بعد ذلك وتفريقهم إلى جهات مختلفة] .

أما البخارية فهم جماعة من أواسط آسيا جلبهم عبيد الله بن زياد وأسكنهم البصرة وأجرى لهم العطاء والأرزاق[٤٠] وكان عددهم ٤,٠٠٠ وشكلوا وحدة جنسية متميزة في المدينة يسكنون في حي واحد معروف يسمى سكة البخارية[٤١] وهناك احتمال كبير أن هؤلاء اختلطوا منذ القرن الثاني للهجرة بالحياة العامة في المدينة وامتزجوا بالألوف من الموالي الإيرانيين الذين نزلوا البصرة في أوقات مختلفة[٤٢] .

وبجانب هذه العناصر وجدت في البصرة أعداد كبيرة جداً من الزنوج الذين جلبوا كرقيق في أزمنة غير معروفة من سواحل أفريقيا الشرقية، ويبدو أن ذلك كان مرتبطاً بتوسع التجارة الإسلامية الكبرى في المحيط الهندي . وكان يتم الحصول على هؤلاء العبيد من حملات غزو أو يشترون مقابل سلع تافهة ثم ينقلون إلى سقطرة أو عدن وهما نقطتا تمركز هذه التجارة، ينقلون بعدها إما إلى مصر عن طريق البحر الأحمر، أو إلى البصرة عن طريق الخليج العربي[٤٣] وقد استخدم هؤلاء بكثرة في كسح السباخ، وفي حملات استصلاح الأراضي في البصرة، تلك الأرض المعروفة بملحيتها العالية، وكان هؤلاء يعملون عادة على شكل مجموعات كبيرة تتراوح بين الألف والخمسة آلاف وربما أكثر . [وفي منتصف القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي كان وجود هؤلاء العبيد بأعداد

هائلة في البصرة قد أدى إلى حركة مدمرة دامت خمسة عشر عاماً (٢٥٥-٢٧٠هـ/٨٦٨-٨٨٣م)[٤٤]، عرفت بـ (حركة أو ثورة الزنج) التي أغرقت المدينة في الفوضى والدمار على مدى أربعة عشرعاماً، ونشرت الرعب في النفوس وقوضت صرح هذه المدينة المزدهرة] .

أزمات وتحولات :

إن ظهور الأمصار الإسلامية الأولى وبخاصة الكوفة والبصرة، ارتبط بمفهوم مركزي في الإسلام هو مفهوم الهجرة، ذلك المفهوم الذي اتسع معناه — أو هكذا أريد له — منذ ذلك الحدث الذي كان سبباً في تحرير الإسلام من ضغط قريش، وانتشاره على مدى أرحب وأكثر أمناً، ونعني به هجرة الرسول محمد ﷺ وأصحابه من مكة إلى يثرب . لقد كانت هجرة المسلمين الأوائل والتحاقهم بالرسول في حينها تعبيراً عن أقصى درجات الإيمان والاستعداد الكامل للجهاد والانسلاخ عن واقع قديم رفضه الدين الجديد، فاستحق هؤلاء المهاجرون مكانة خاصة في الإسلام، ثم اتخذ مفهوم الهجرة بعدئذ بعداً معنوياً، وصار شرفاً يحمله كل مسلم مستعد للتضحية حتى وإن لم يهاجر .

ومع انطلاق حركة الفتوح الإسلامية الكبرى في خلافة عمر وجد الإسلام نفسه من جديد مرتبطاً بالهجرة، وعاد إلى ذلك المفهوم فوسع إطاره، وأصبحت الهجرة باتجاه العراق والشام لنشر رسالة السماء ومحاربة الكفر، وكان امتياز هؤلاء المهاجرين (الدنيوي) هو تمتعهم بالعطاء دون غيرهم من المسلمين — باستثناء النخبة في المدينة — كما كان مقدار هذا العطاء يتسلسل حسب أسبقية الالتحاق بهذه المناطق[٤٥]، لذلك سارعت أعداد هائلة من عرب شبه الجزيرة العربية إلى الشام والعراق لتبدأ أكبر عملية هجرة هادفة، ومنظمة (ومسلحة) في

التاريخ، غيرت وجه العالم آنذاك فمحت إحدى أكبر إمبراطوريتين من الوجود وإلى الأبد، وحجمت الأخرى، ونشرت الإسلام في الأصقاع البعيدة خلال فترة زمنية وجيزة، وكان من أبرز وأهم نتائجها الأخرى ظهور الكوفة والبصرة كأول مدن إسلامية خارج شبه جزيرة العرب، ولم تكن هاتان المدينتان مجرد محطات استقرار بشري وعمراني فقط بل لعبتا أدواراً سياسية واقتصادية وعسكرية وإدارية هامة جداً إلى درجة يمكن القول معها بأن التاريخ العربي الإسلامي خلال القرن الأول ومطلع القرن الثاني للهجرة يكاد يكون هو تاريخ البصرة والكوفة وأحداثهما.

إن هذه القبائل التي دفع بها الإسلام إلى خارج الجزيرة العربية، شكلت الأغلبية المطلقة من سكان البصرة، وهم العرب الفاتحون الذين أصبحوا سادة المجتمع المتمتعين بكل الامتيازات. وكان لطبيعة التركيب السكاني في المدينة أثره الكبير على حياتها القادمة، وظروفها ومراحل تطورها، فمعظم من استقروا في المدينة كانوا من قبائل شرق جزيرة العرب مثل تميم وبكر وعبد القيس ممن ثاروا على سلطة الدولة المركزية بعد وفاة الرسول ﷺ.

وهذا يفسر استمرار الكثير منهم في تحدي الجهود التي بذلت لتخفيف حدة التنافس القبلي داخل المدينة، وقد ظل ذلك الاحتكاك القبلي يشكل خطراً كامناً يهدد حياة المدينة خاصة في السنوات الأولى من تأسيسها[٤٦]، وهي تعيش تلك التجربة المثيرة على طريق الاستقرار والتمدن، إلا أن تأثير الإسلام على العلاقات بين القبائل في هذه المرحلة كان فعالاً وبعيد المدى، وقد تمثل ذلك التأثير في النواحي التالية:

* كانت حروب الردة فرصة لدولة المدينة لتأكيد سلطانها على القبائل المتمردة وإخضاعها لنفوذها المركزي، فخلقت بذلك وحدة – وإن كانت شكلية

ومؤقتة – بين هذه القبائل، كانت الخطوة الأولى على طريق التحـول الاجتماعي .

* على الرغم من أن معظم أفراد هذه القبائل لم يكونوا ملمين إلماماً دقيقاً بتفاصيل دينهم الجديد، وكان تنظيم الجيش يقوم على أساس التشكيل القبلي، إلا أن انخراطهم في جيش واحد يحارب باسم الإسلام، ويخضع لأوامر مركزية متمثلة في سلطة الخليفة أو من ينوب عنه من القادة العسكريين كان في حد ذاته مفهوماً ثورياً جديداً ترك بصماته على علاقاتهم الاجتماعية الجديدة .

* كان لمشاعر الحماسة القوية التي استقطبت عواطف العرب، ودفعتهم لدك حصون الإمبراطورية الساسانية، مفعولها الكبير في حمل هذه القبائل على تناسي خلافاتها لبعض الوقت .

* إن كل قبيلة من هذه القبائل أصبحت جزءاً يحارب من أجل أهداف وغايات شمولية عامة فيها بالنتيجة مصلحة الجماعة الإسلامية بعد أن كانت في الماضي القريب تحارب لأهداف محدودة وخاصة، وبذلك أخضعت هذه القبائل نفسها تدريجياً لسلطة الدولة المركزية وأصبحت جزءاً منها .

إن هذه المتغيرات الجديدة التي طرأت على واقع القبائل المهاجرة لم تؤد إلى تلاشي القبيلة أو إضعاف تماسكها، ولكنها نجحت إلى حد بعيد في تطويرها وإظهارها إلى الوجود في إطار إسلامي جديد، يحسب للسلطة المركزية حسابها كقوة للربط والتوحيد، وقوة للحسم والفصل .

لقد كان تاريخ البصرة منذ نشأتها على امتداد الجزء الأكبر من القرن الأول الهجري، تاريخاً مليئاً بالتعقيد والعنف والمصاعب الناجمة عن الأزمات والحروب السياسية والقبلية، وكان من أبرز تلك الهجمات والحروب التي شهدتها هذه الحقبة هي : أحداث الفتنة الأولى ومعركة الجمل بعد مقتل سيدنا عثمان ﷺ، ثم حرب صفين، ثم حروب الخوارج وهجماتهم، وحركة

عبد الله بن الزبير، فضلاً عن التكتلات والمشاكل الداخلية بين القبائل . . .الخ . ولو أخذ البحث تلك الأحداث بمعزل عن التطور العام للمدينة لخرج بصورة قاتمة من صور الاضطراب العام والفساد، التي لاتتفق وواقع الحال، ولابد من الأخذ بنظر الاعتبار العناصر الأخرى التي أسهمت في نمو المدينة المطرد على الرغم من كل الروادع والظروف المعوقة لتطورها وظهورها كمركز حضري، ومن ثم مدينة ذات شأن هام، في ميادين الفكر والأدب والعلوم، فضلا عن دورها في ميدان التجارة والاقتصاد .

إن هذا التطور الحضري بمعناه الواسع اتخذ حالة فريدة مقارنة بنشأة القاعدة العسكرية التي كانت غايتها خدمة الأغراض الحربية لجيوش الفتح، وبمرور الأيام كانت الجوانب المدنية من حياة البصرة تمتزج بجوانبها العسكرية بحيث أصبح من الصعب الفصل بينهما، فقد كان الازدهار المتنامي للحياة الحضرية في المدينة — المعسكر، يعتمد بالدرجة الأولى على ما يدخلها من موارد ناجمة عن الفتوح الجديدة، وكان غالبية سكانها العرب يستلمون عطاءً منتظماً من الدولة، يصرف لهم مقابل استعدادهم الدائم لإمداد الجيوش بالمحاربين متى طلب منهم ذلك، وبهذا الأسلوب — بالدرجة الأساس — ضمنت الدولة مدداً متصلاً من الجنود المحاربين الذين كانوا يدفعون بالزحف الإسلامي خطوات إلى الشرق، في ذات الوقت الذي ضمنت فيه الدولة أيضاً سيلاً متصلا من الموارد المالية التي كانت تسهم في بناء الحياة الحضرية الجديدة النامية، وفي بناء اقتصاد متين قائم على النقود، وسد الحاجات المادية الأساسية للمجتمع .

إن هذه الثنائية في تكون شخصية البصرة في هذه المرحلة، فرضتها ظروف الدولة وسياساتها المتوازنة الدقيقة، بين محاولة الحد من النفوذ القبلي وقوته باعتباره يتقاطع وقوة الدولة وسلطانها ومركزيتها، وبين سعيها في الحفاظ على

الهياكل القبلية لأغراض حربية ومالية، إن هذا الواقع الذي يبدو في الظاهر متناقضاً، أضفى على شخصية البصرة طابعها المميز المتسم بالحيوية الدافقة والاستجابة السريعةلدواعي التمدن والتطور والاستقرار، الذي عجلت به عوامل أخرى، كل ذلك هيأ البصرة – حتى بعد أن انقطع عن أهلها العطاء في القرن الثاني للهجرة وانتهاء عصر الفتوح – أن تعتمد على نفسها، وتحلق بجناحيها مستفيدة إلى أقصى حد من موقعها الجغرافي المتميز، ومن إمكانيات مواطنيها من مختلف الأجناس والمراتب مستغلة خبراتهم وأموالهم لتنهض بالتجارة، لا لتنقذ نفسها فحسب بل لتزدهر وتتطور، في حين كانت شقيقتها الكوفة في هذه المرحلة تشهد التراجع والانحسار خاصة بعد تأسيس بغداد التي امتصت منها بريقها ورجالها .

وبحلول القرن الثاني للهجرة أصبحت البصرة من الأمصار الإسلامية المعروفة[٤٧]، هي عين الدنيا[٤٨]، وفرضة البحر ومطرح البر[٤٩]، تاجرها أعظم الناس تجارة[٥٠]، مدينة الدنيا ومعدن تجاراتها وأموالها[٥١] تقابل بها الدنيا جميعاً[٥٢] وصارت مركزاً إدارياً لجنوب العراق ومناطق الخليج العربي، ومركزاً تجارياً عالمياً تنتهي إليها طرق التجارة البرية والبحرية، ومنفذ العراق على تجارات الشرق من إيران حتى حدود الصين[٥٣] .

وقبل أن نعرض لمراحل نموها الديموغرافي وتحولاتها الاجتماعية منذ نشوئها كمعسكر متواضع يضم مجموعات قبلية صغيرة، حتى أضحت مدينة حضرية عظيمة استحقت كل الأوصاف أعلاه، نشير إلى أن هذه التجربة في الاستقرار والتمدن كانت بعيدة كل البعد عن مفهوم الجغرافية الاستعمارية أو نظرية التنمية التخطيطية، كما أنها من جانب آخر لم تكن عقلنة وتنظيماً لهجرة فوضوية، جاءت بأقوام جائعة انقضت على مناطق خضراء غنية، ولم تكن كذلك صورة من صور الاستقرار العفوي المندمج باطار اقتصادي، أي هجرة

أشخاص أو قبائل من مناطق صحراوية إلى أرض زراعية كما حدث فعلاً في مراحل سابقة قبل ظهور الإسلام، وفي مناسبات عديدة، لقد هاجرت قبائل عربية كثيرة من شبه الجزيرة العربية إلى سواد العراق والجزيرة الفراتية، (قبل الإسلام) ابتداءً من القرن الثالث الميلادي ولكن انتقالها لم يحدث انقلاباً أو أثراً كبيراً في المناطق التي استقروا فيها إن لم يكن الكثير منها قد عاش عيشة مهمشة، إذن فكلمة الاستقرار في تجربة البصرة (وكذلك الكوفة) لا تفي بالغرض، ولا تؤدي إلى المعنى الدقيق في تفسير ما حدث فعلاً، لأنها كانت عملية تمدينية واسعة، جدت في ظروف تاريخية خاصة، هي ظروف الانقلاب الهائل الذي أحدثه الإسلام في حياة العرب، واستجاب العرب لها بنزوع إرادي كامن نحو الحياة الحضرية بكل ما تعني هذه العبارة من معنى[٥٤] .

لقد نمت الكثافة السكانية في البصرة بسرعة كبيرة من حوالي ألف مقاتل عند تمصيرها سنة ١٦ للهجرة، إلى حوالي ٣٠٠ ألف ساكن سنة ٥٠ للهجرة[٥٥] إلى حوالي نصف مليون نسمة أواخر القرن الأول للهجرة[٥٦] وفي العصر العباسي أصبحت بحدود المليون نسمة[٥٧] .

ويبدو أنه من الصعب تحديد توقيتات زمنية لمجريات هذا التطور على ضوء الأرقام التي تظهر لنا في المصادر كل عشرين سنة تقريباً، وفي سياق تعرضها للأحداث الكبرى والأزمات السياسية والعسكرية، لأن هذه المصادر في الغالب تذكر أعداد المقاتلين فقط دون إشارات إلى السكان الآخرين من النساء والأطفال والعرب غير المسجلين في الديوان والأجانب وغيرهم، وهؤلاء قد زاد عددهم مع توالي السنين لتوفر فرص العمل والأنشطة الاقتصادية المربحة أكثر من الارتباط بعجلة الحرب . ومما يؤكد ذلك أن البصرة لم تضمر أو تمت بعد توقف حركة الفتوح وانقطاع العطاء عن أهلها في العصر العباسي، بل استمرت في النمو والازدهار بوتائر أسرع طيلة القرنين الثاني والثالث للهجرة .

لقد كان أكثر المهاجرين إلى البصرة من القبائل العربية التي كانت ديارها قريبة من البصرة، وعندما أصبحت هذه الأخيرة القاعدة الرئيسية للجيوش الإسلامية المسئولة عن فتوح أقاليم واسعة في المشرق في زمن الخليفة عثمان بن عفان ﷺ هاجرت إليها عشائر أخرى كثيرة أهمها عشائر عبد القيس التي كانت تقيم في البحرين[٥٨]، وفي زمن خلافة علي ﷺ ذكر أن عدد المقاتلين المسجلين رسمياً في العطاء أصبح ٦٠,٠٠٠ مقاتل[٥٩]. وفي زمن زياد (٤٥-٥٣هـ/ ٦٦٥-٦٧٣م) أصبح مجمل سكان البصرة ٢٠٠,٠٠٠ ساكن، ٨٠,٠٠٠ مقاتل مسجل في ديوان العطاء و١٢٠,٠٠٠ من النساء والأطفال[٦٠]، وفي ولاية عبد الله بن زياد (٥٥-٦٣هـ/٦٧٥-٦٨٣م) أصبح عدد المقاتلين ٩٠,٠٠٠ مقاتل ومعهم ١٤٠,٠٠٠ من النساء والأطفال[٦١]، أي ٢٣٠,٠٠٠ في الجملة، وقد ذكر أن أول إحصاء للنفوس في البصرة جرى سنة ١١٦هـ فكان عدد سكان البصرة ٣٠٠,٠٠٠ نسمة[٦٢].

ومع تسارع التطورات والأحداث في حياة المدينة، أخذ مجتمع البصرة يسرع إلى حياة الاستقرار والتمدن، وأخذت تخف مع الزمن الفروق المكانية وتخف الفوارق العصبية بين القبائل، وبعد أن عانى هذا المجتمع من مشكلات معقدة متباينة وتقلب بين وضع وآخر، وتشكل من صورة إلى أخرى، اضطر آخر الأمر إلى الخضوع والاستجابة إلى مستجدات الحياة، خضع لأسباب بعضها سياسي وبعضها اقتصادي، ومرت سنوات قلقة مضطربة قبل أن تهدأ البصرة وتستقر ويتكون المجتمع الجديد.

لقد كان هناك صراع مستمر بين عناصر البداوة ممثلة بالقبلية التي كانت تعمل وكأنها كائن سياسي قائم على مبدأ آخر غير مبدأ الدولة[٦٣]، وتجد في الحياة الحضرية الجديدة وسلطة الدولة تحدياً لوجودها، وبين عناصر وقوى أخرى غير منظورة كانت تفعل فعلها لإحداث التفاهم والانسجام داخل المصر،

ومع الزمن كان الظفر إلى جانب قوى التحضر والاستقرار، وتقلص نفوذ القوى التقليدية الأخرى، فتضخم عدد السكان مع توسع حركة الفتوح . وتضافرت جملة من العوامل التي فرضتها الاعتبارات الإدارية والعسكرية على إضعاف روح التضامن القبلي وفرضت على العرب تطويع نظمهم البنيوية لظروف الحياة المستقرة في المدينة مما ساعد على تطورها الاجتماعي والاقتصادي .

وقد كانت الإجراءات الإدارية التي أقدم عليها الوالي زياد في مقدمة تلك العوامل التي أدت إلى صياغة جديدة لمجتمع البصرة المدني، وكانت أهم وأقوى خطوة هي التوزيع الجديد للقبائل على أساس تقسيمات كبرى، فجعل البصرة خمسة أخماس، الأمر الذي ساعد على خلق تكتلات جديدة وإلغاء الكثير من الفروق بينها، فكانت ربطاً بين القبائل وإيذاناً بتغيير نظرتهم إلى الحياة .

كما أن ربط النظام القبلي عامة بالجهاز الإداري للدولة قد أدى إلى تدهور واضح في سلطة القبائل ومراكزها، إن استقرار هذه القبائل في المدينة وخضوعها لسلطة الوالي الذي لم يكن يستمد سلطانه من علاقة الدم التي تربطه بالآخرين، أضعف من فاعليتها السياسية، وقلل من شأن تلك الرابطة التي كانت تقوم بين أفرادها على أساس صلة الدم والقربى .

إن تعاظم سلطة الوالي وقوة نفوذه كانت دائماً على حساب سلطة القبائل، فقد دفعت سيطرته على النظام المالي ونفوذه على زعماء القبائل بهذا المجال، دفعت بهؤلاء الزعماء إلى التنافس فيما بينهم ليكسبوا رضاه، ولينالوا بالتالي قدراً أكبر من السلطة على قبائلهم من جراء ذلك، وأدى هذا في نهاية الأمر إلى إضعاف قوتهم الفعلية وتبديد أهميتهم، وأصبح الوالي مركز القوة الحقيقية التي يدين بها الجميع . من جانب آخر كان نمو المصر قد تطلب إقامة جهاز إداري يتكون من موظفين لإدارته، وكان معظم هؤلاء يعينون في

البداية من غير العرب، ولم تكن لهم بالتالي قبائل تحميهم، فكان ولاؤهم للأمير وحده مما شكل ذلك دعماً مضافاً إلى سلطته .

وكانت الشرطة أداة أخرى اعتمد عليها الوالي لتقوية مركزه، وتشكلت هذه المؤسسة في بدايتها من عناصر غير عربية، مثال ذلك السيابجة الأربعمائة الذين أوكلت إليهم مهام حراسة بيت المال والسجن منذ أيام أبي موسى الأشعري[٦٤] . ومن الخطوات التي اتخذها زياد هو أنه استطاع أن يكوّن من أبناء القبائل حرساً خاصاً به كان يقوم ببعض ما تقوم به الشرطة من مهام، وكان عددهم بحدود ٥٠٠ رجل أسندت قيادتهم إلى كل من شيبان بن عبد الله وعبد الله بن حصن وهما من رجالات البصرة البارزين[٦٥] . وأكمل زياد هذه الخطوة بإجراء إداري آخر وهو تقوية سلطة العرفاء الذين كانت تعينهم الدولة ومنحهم صلاحيات واسعة منها توزيع العطاء وتسجيل المواليد والموتى ومراقبة مثيري الفتن، والإبلاغ عمن يفسد النظام، وهم الذين يدعون الجند إلى الجهاد، فضلاً عن مسئولية دفع الديات التي تطلب من أفراد عرافتهم[٦٦]، وبهذه الإجراءات أضعف سلطة شيوخ القبائل وحول الأنظار عنهم بعض الشيء وأصبح دور العرفاء كبيراً في مباشرة أعمال المدينة الإدارية وتنفيذ أوامر الوالي، لأنهم كانوا خاضعين مباشرة لسلطته .

وساهم نظام العطاء هو الآخر في إضعاف روح التضامن القبلي حين قصر العطاء على بعض العرب دون الآخرين . فقد استحق العطاء من كان في خدمة الجيش الفعلية دون سواهم، وكان لا مناص من أن تجد الأعداد المتزايدة من المهاجرين الجدد أنفسها خارج إطار السلطة الفعلية للعشيرة أو الفرع القبلي

المهيكل وفق التنظيم الرتبي للعطاء، لذلك انصرف عدد كبير من سكان البصرة إلى كسب أرزاقهم عن طريق التجارة وما إليها . وكانت طبيعة نشاطهم الاقتصادي والمهن التي امتهنوها تفرض عليهم إقامة علاقات جديدة مبنية على المصالح المشتركة بينهم وبين أناس آخرين لاتربطهم بهم رابطة النسب أو الدم . إن ظهور مثل هذه العلاقات الحضرية دفع الكثيرين من سكان المدينة إلى التخلص من كثير من رواسب حياتهم السابقة، هذا من جهة، ومن جهة ثانية كان يتولى ديوان العطاء عمال الأمصار (الولاة) وهم الذين يوزعون العطاء على المقاتلين عن طريق قادة الأخماس والعرفاء المعينين من قبل الدولة، ومن خلال طريقة التوزيع هذه كان دور الدولة يتأكد بقوة في المجتمع[٦٧]، ويتعزز باستمرار دور جهازها الإداري .

وفي أواخر القرن الأول الهجري وهي المرحلة التي شهدت تقلص حركة الفتوح في المشرق أصبحت حاجة الدولة إلى الإداريين الأكفاء لضبط الأمور في البلاد المفتوحة أكثر منها إلى القادة العسكريين، وكانت المقدرة الإدارية في الغالب أهم في الاعتبار من السند القبلي الذي يتمتع به الشخص، وكانت الفوائد والامتيازات التي تضيفها هذه الوظائف كبيرة على من يشغلها، ولما كانت هذه الوظائف تسند عن طريق الوالي وليس عن طريق العشيرة أو القبيلة، فقد عظَّم ذلك من شأن الوالي، وأصبح كل من يتطلع إلى منصب من هذه المناصب مثل العامل أو العريف أو القاضي وغيرها، لابد أن يكون على صلة وثيقة بالوالي وبجهازه الإداري، فازداد مع الزمن عدد الرجال البارزين الذين أصبحت مصالحهم الشخصية تزداد ارتباطاً بالدولة من خلال الوالي،

وأصبحت هذه الطبقة الحاكمة أو المتطلعة إلى الحكم تتسع مع الزمن، ويطغى نفوذها على المجتمع القبلي، الذي بدأ ينحسر تأثيره ونفوذه تدريجياً[٦٨] .

إن المتغيرات الكبيرة التي طرأت على بنية القبائل وعلاقاتها لم تلغ التنافس فيما بينها، وربما استمرت بعض الخصومات القبلية إلى وقت متأخر[٦٩] ولكنها بدأت تفتر وتقل مع تقادم الزمن واستقرار الأمور . ولم يكد أثرها يخف حتى ثار في البصرة – في وقت لاحق، أي في القرن الثاني للهجرة – نوع جديد من الخصومات الاجتماعية، كانت هذه المرة بين هؤلاء العرب وبين ما كانت تزخر به المدينة من عناصر أجنبية مختلفة وخاصة الفرس الذين تسللوا إلى العراق بكثرة وخصوصاً في العصر العباسي، فكانت الخصومة شديدة بين العروبة والنزعة الشعوبية التي ظهرت بقوة على يد هؤلاء، وهي خصومة عميقة تعددت أسلحتها وكثرت ألوانها . وأخذ العرب يشعرون أن انقسامهم إلى قبائل كان مصدر ضعف لهم، ودفع هذا ببعض الكتاب ولاسيما الجاحظ – أديب البصرة المشهور – إلى تأكيد أن العرب أمة واحدة تجمعها روابط الثقافة المشتركة والعادات المتشابهة واللغة الواحدة، وأن الفوارق الناجمة عن اختلاف القبيلة أو الموطن هي فوارق سطحية وضئيلة أمام تلك التحديات، كما تصدى كتاب آخرون كالثعالبي والهمداني وغيرهم إلى تلك النزعات ومجدوا العرب ولغتهم وآثارهم الحضارية[٧٠] .

وعلى الرغم من وجود تلك النزاعات والخصومات التي كانت بين القبائل، ورغم شعور القبيلة في المراحل الأولى من الاستقرار بضغط الدولة ونظمها الجديدة على كيانها الداخلي، إلا أن هذه القبائل لم تكن في أي وقت

من الأوقات في حالة عداء مع المدينة وعمرانها، ولم يسجل في تاريخ العرب سواء في شبه الجزيرة العربية أو خارجها أي سلوك تدميري ولأي مدينة كانت، بل كانوا مشيدين ومنظمين رغم تمسكهم ببعض خلفياتهم الثقافية المستمدة من عالم الصحراء[٧١] لقد أنشأوا مدينة من العدم وعمروها وأثروا حياتها بكل صنوف الإبداع الحضاري وأضحت البصرة بعد قرن من الزمان نموذجاً لذلك النزوع التمدني الكامن في نفوس العرب . كان أهلها يحاربون في الأقاليم البعيدة، ويتخاصمون فيما بينهم، ويجدون أنفسهم في كل مرة في قلب الحروب الداخلية والأزمات السياسية، وكانوا في ذات الوقت يشيدون مدينة تفوقت في العمران وأبدعت في الفكر والأدب، وتميزت في الدين والسياسة وأخيراً في التجارة والنظم الاقتصادية المتطورة .

د. عبد الحكيم غنتاب الكعبي

قسم التاريخ – كلية الآداب

جامعة التحدي – سرت – ليبيا

هوامش البحث

١ – ناجي، عبد الجبار، دراسات في المدن العربية الإسلامية، البصرة ١٩٨٦م، ص١٠ .

٢ – الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى، ترجمة عبد الرحمن حميدة، دمشق ١٩٧٩م، ص٢٦ .

٣ – تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ترجمة بدر الدين القاسم، ط ٢، بيروت ١٩٧٧م، ص١٣١ .

٤ – Caetani, L., Annali de l'Islam (Milan, 1905-1926) III, 2 P. 834.

٥ – عبارة مأخوذة عن الإنجليزية (Mushrooms-towns) أو من الفرنسية (Villes-champignons) أي مدن تنمو بسرعة خاطفة ومذهلة كنبات الفطر .

٦ – موريس لومبارد، مرجع سابق، ص١٧٦ .

٧ – جعيط، هشام، الكوفة، نشأة المدينة العربية الإسلامية، ط ٢، بيروت ١٩٩٣م، ص١٥٤ .

٨ – المرجع نفسه، ص٣٢٩ .

٩ – الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم/، القاهرة ١٩٦٠-١٩٦٩م، ج ٤، ص٧٥ .

١٠ – البلاذري، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، بيروت ١٩٥٨م، ص٢٧٤ ؛ الطبري، ج ٤، ص٤١-٤٢ .

١١ – ظهر هذا التشدد في اختيار مواضع الأمصار في المرحلة الإسلامية المبكرة فقط، فهذه الشروط لا نجدها تتكرر ثانية في المراحل اللاحقة بعد أن استقرت عمليات الفتح لأنها لاتتلاءم وظروف الانتصارات التي حققها العرب، إذ انساحت الجيوش في مناطق واسعة وبعيدة جداً عن مركز القيادة .

١٢ – هشام جعيط، الكوفة، ص٦٩ .

١٣ – ياقوت الحموي، شهاب الدين، معجم البلدان، دار صادر، بيروت (د.ت) ج ١، ص٦٣٩ .

١٤ – البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٣٦-٣٤٥ ؛ الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩٦٠م، ص١١٧ .

١٥ – نسبت هذه التقسيمات إلى ولاية زياد مع أن مصطلح الخمس والأخماس باعتبارها وحدات تنظيمية عسكرية وجبائية ظهرت لأول مرة قبل واقعة صفين (سنة ٣٧هـ)، ينظر : الطبري، ج ٥، ص٤٢٦ .

١٦ – ماسنيون، لويس، خطط البصرة وبغداد، ترجمة إبراهيم السامرائي، بيروت ١٩٨١م، ص١٦-١٧ ؛ صالح أحمد العلي، خطط البصرة ومنطقتها، بغداد ١٩٦٦م، ص٨١ .

١٧ – الطبري، ج ٥، ص٢٣٧ ؛ ماسنيون، ص١٨ .

١٨ – ماسنيون، خطط البصرة، ص١٨ .

١٩ – الجاحظ، أبوعثمان عمرو بن بحر، الحيوان، القاهرة ١٩٤٥م، ج ٢، ص٣٢٣ ؛ماسنيون، خطط، ص١٩ .

٢٠ – صالح العلي، خطط، ص٨٧ .

٢١ – ماسنيون، خطط، ص٢٣ .

٢٢ – لأن أراضي البصرة عشرية يحق للمسلمين امتلاكها واستثمارها . الإصطخري، أبو إسحق إبراهيم، المسالك والممالك، ليدن بريل ١٩٢٧م، ص٨٠ .

٢٣ – البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٥١ .

٢٤ – ابن عبد ربه، أبوعمر شهاب الدين ، العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين وجماعته، القاهرة١٩٤٨ ، ط ج ٢ ، ص٢٦٠ .

٢٥ – عون الشريف قاسم، شعر البصرة في العصر الأموي، الخرطوم ١٩٩١م، ص٥٣ .

٢٦ – شارل بيلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ترجمة إبراهيم السامرائي، دار الفكر، دمشق ١٩٨٥م، ص٦٩ .

٢٧ – أنظر حول هذا الموضوع : صالح العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، ط ٢ ، بيروت ١٩٦٩م، ص٧٧ وما بعدها .

٢٨ – البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٧٣ .

٢٩ – أنظر شارل بيلا، المرجع السابق، ص٧١ .

٣٠ – البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٧٤ .

٣١ – المصدر نفسه، ص٣٧٦ .

٣٢ – صالح العلي، التنظيمات، ص٨٥ .

٣٣ – أغلاط اللغويين الأقدمين، ص ص١٦٢-١٦٣ .

٣٤ – شارل بيلا، المرجع السابق، ص٧٨ .

٣٥ – البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٧٤-٣٧٥ .

٣٦ – المصدر نفسه، ص٣٧٤ ؛ صالح العلي، التنظيمات، ص٨٥-٨٦ ؛ شارل بيلا، المرجع السابق، ص٧٤ .

٣٧ – البلاذري، ص٣٧٥ .

٣٨ – الطبري، ج ٩، ص١٠ .

٣٩ – البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٧١ .

٤٠ – البلاذري، فتوح البلدان، ص٣٧٦-٤١١ .

٤١ – ابن الفقيه الهمداني، أبو بكر أحمدبن محمد، مختصر كتاب البلدان، ليدن ١٩٦٧م، ص١٩١ .

٤٢ – شارل بيلا، المرجع السابق، ص٧٢ .

٤٣ – لومبارد، الجغرافية التاريخية ص٢٦٥ .

٤٤ – ينظر : Popovic, Alexandre, La Revolte des esclaves en Iraq, au 111 e/IX siècle (Paris 1976) P.P. 83-123.

٤٥ – جعيط، هشام، الفتنة، جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر، ترجمة خليل أحمد خليل، بيروت ١٩٩٢م، ص٤٩-٥٠ .

٤٦ – الجاحظ، البيان والتبيين، بيروت ١٩٦٨م، ج ٢، ص٢٣٣ .

٤٧ – المرزوقي، أبو علي الأصفهاني، الأزمنة والأمكنة، حيدر أباد الدكن ١٩١٣م، ج ١، ص٨ .

٤٨ – الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٥م، ص١٦٢ .

٤٩ – المقدسي، شمس الدين أبوعبد الله، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن ١٩٠٦م، ص١٢٨ .

٥٠ – ابن قتيبة، عيون الأخبار، القاهرة ١٩٦٣م، ج ١، ص٢١٦ .

٥١ – اليعقوبي، البلدان، المطبعة الحيدرية، النجف ١٩٥٧م، ص٨٠ .

٥٢ – المقدسي ص١١٣ .

٥٣ – المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٥٨م، ج ١، ص١٤٠ .

٥٤ – ينظر : هشام جعيط، الكوفة، ص٧٦ – ٧٧ .

٥٥ – صالح العلي، خطط البصرة، مجلة سومر ١٩٥٢، ص٧٢ .
٥٦ – صالح العلي، خطط البصرة ومنطقتها، مرجع سابق، ص٤٨ .
٥٧ – الحسني، عبد الرزاق، العراق قديماً وحديثاً، بيروت ١٩٧١م، ص١٧٥ .
٥٨ – صالح العلي، خطط البصرة، ص٤٧ .
٥٩ – الطبري، ج ٥، ص٧٩ .
٦٠ – البلاذري، فتوح، ص٣٤٤ .
٦١ – الطبري، ج ٥، ص٤٣٣ .
٦٢ – Shaban (M.A.), Islamic History, Cambridge,1971, P. 65.
٦٣ – هشام جعيط، الكوفة ص١٩٢ .
٦٤ – الطبري ج ٤، ص٤٨٥ ؛ البلاذري، فتوح، ص٣٧٦ .
٦٥ – الطبري، ج ٥، ص٢٢٣ .
٦٦ – نفسه، ج ٥، ص٧٩، ص٣٥٩ .
٦٧ – هشام جعيط، الفتنة، ص٥١ .
٦٨ – عون قاسم، المرجع السابق، ص٣٥–٤٠ .
٦٩ – ينقل الأستاذ عبد العزيز الدوري عن الذهبي خبراً عن خصومة قبلية في البصرة بين قبائل من ربيعة وأخرى مضرية دامت مائة وعشرين سنة، حتى أصلح بينهما عضد الدولة سنة٣٦٦هـ، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، بيروت ١٩٧٤م، ص٢٨ .
٧٠ – عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ص ٣٠–٣١ .
٧١ – هشام جعيط، الكوفة، ص١٩٣ .

كما أن سواحل الخليج العربي الغربية هيأت طريقاً جيداً أمام وسائط النقل النهري، فضحالة المياه على مقربة من الساحل وكثرة تعرجاته وانتشار عدد من الجزر القريبة منه، وتوفر مصادر المياه العذبة في نقاط معينة على الأرض، وكذلك في الجزر، ساعدت جميعها على إتاحة الفرصة أمام وسائط النقل النهريةالقديمة للإبحار في مياه الخليج العربي جنوب مراكزه المتباينة .

وتدل الشواهد والأدوات الأثرية التي تم العثور عليها في مراكز متعددة من الخليج العربي، لاسيما في (دلمون/البحرين)، على وجود صلات تجارية مبكرة منذ فجر التاريخ وبخاصة مع بلاد الهند والشرق الأقصى، كما أوردت لنا المصادر الكلاسيكية (اليونانية والرومانية) معارف قيمة ومهمة عن قدم الصلات التجارية بين مدن ومراكز الخليج العربي التجارية وبين الهند وجنوب شبه الجزيرة العربية (اليمن القديم) وشعوب البحر المتوسط وبلاد الرافدين .

وعلى الرغم من تلك الأهمية التجارية والفكرية والحضارية للخليج العربي ومراكزه التجارية، الموغلة في القدم فإن حظه من الدراسة والبحث كان يسيراً ولا يتناسب أبداً مع تلك الأهمية الحضارية للخليج العربي في العصور القديمة .

من أجل ذلك هدفت هذه الدراسة إلى بحث الصلات التجارية بين الخليج العربي وبلاد الهند خلال العصرين الهلنستي والروماني(٣٣٣ق.م-٢٠٠م)، وهي الحقبة التي شهدت اهتماماً يونانياً كبيراً بالعالم الشرقي وسلعه النفيسة إذ بذل اليونان منذ زمن (الإسكندر المقدوني) اهتماماً خاصاً بالخليج العربي ومراكزه التجارية لما يتمتع به الخليج العربي من موقع استراتيجي مهم بالنسبة للتجارة مع بلاد الهند والشرق الأقصى .

كما شهد الخليج العربي خلال العصر الروماني ازدهاراً تجارياً كبيراً وبخاصة مع بلاد الهند، نظراً لتوسع الإمبراطورية الرومانية الذي نجم عنه إقبال كبير على الطيوب والتوابل والسلع الشرقية من قبل سكان الإمبراطورية الرومانية .

وقد قسمت هذه الدراسة على أربعة محاور رئيسية : خصص المحور الأول لبحث اهتمام اليونان في العصر الهلنستي بالخليج العربي ومراكزه التجارية منذ عهد (الإسكندر الأكبر) ثم اهتمام الرومان من بعدهم بتجارة الشرق عبر الخليج العربي . أما المحور الثاني فقد اهتم بدراسة أهم المراكز التجارية في الخليج العربي، وصلاتها التجارية مع بلاد الهند وبخاصة (الجرهاء) و(خاراكس/المحمرة) و(الأبلة) . وأما المحور الثالث فقد عني بدراسة الطرق التجارية البحرية والبرية بين الخليج العربي وبلاد الهند خلال مدة الدراسة، وقد خصص المحور الرابع لبحث البضائع والسلع التي تاجر بها الخليج العربي مع بلاد الهند، وقد خلصت الدراسة إلى عدد من النتائج وهي مثبتة في نهاية هذه الدراسة .

أولاً : اهتمام اليونان والرومان بتجارة الخليج العربي ومراكزه التجارية المتصلةبالتجارة مع الهند .

ليست فتوحات الإسكندر الأكبر المقدوني (٣٥٦-٣٢٣) ق.م التي قذفت بالإغريق والرومان من بعدهم إلى مسافات بعيدة وواسعة من قارة آسيا، حدثاً سياسياً فحسب، وإنما هي فصل من فصول كتاب التاريخ البشري، الذي نقرأ فيه أخبار التقاء العالمين الشرقي والغربي وجهاً لوجه ونزعة الغرب في السيطرة على الشرق، وتأثر الحضارات والثقافات بعضها ببعض، وحصول علماء اليونان

والرومان على معارف مباشرة عن أحوال الأمم الشرقية التي كانوا يسمعون أخبارها من أفواه التجار والسياح والملاحين[١] .

وبعد معركة (أسوس)عام ٣٣٣ ق.م التي انتصر فيها الإسكندر المقدوني على (داريوس) الفارسي، فتح باب الشرق أمام الملك المقدوني والحضارة اليونانية التي اختلطت بعناصر شرقية وأطلق عليها اسم الحضارة الهلنستية[٢] ومن خلال دراسة فتوح الإسكندر نجد أن هدفه من توسعه في الشرق هو ضرب احتكار العرب لتجارة الشرق، والوصول إلى الهند[٣] .

ولتحقيق هدفه ذاك قام ببناء ١٧ مدينة تحمل اسم الإسكندرية نسبة إلى اسمه، وكانت معظم تلك المدن مراكزاً للتجارة أو (للترانزيت) فضلاً عن دورها العسكري، كما أنه أرسل بعثات استكشافية لمعرفة المسالك التجارية المهمة وبخاصة إلى سواحل شبه الجزيرة العربية بضمنها سواحل الخليج العربي، وبعد أن بسط الإسكندر سلطانه إلى حدود السند في النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد، أبدى اهتمامه بإعادة النشاط التجاري بين ساحل السند والخليج العربي[٤] .

وللتعرف على أنشطة اليونان في الخليج العربي منذ زمن الإسكندر المقدوني، لابد لنا من العودة إلى ما أورده لنا **(Flavius Arrianus)** المتوفى عام ١٧٥م، الذي يعد مؤرخ حروب الإسكندر المقدوني في مؤلفه الذي أطلق عليه اسم (فتوحات الإسكندر) **(Anabasis Alexandri)**[٥] .

فقد جاء في الكتاب السابع (VII) الفصل (٢٠) أن الإسكندر كان قد سمع أن العرب يقدسون اثنين فقط من الآلهة **(Uranus)** و**(Dionysus)** فأراد الإسكندر أن يجعل نفسه الإله الثالث إذ كان يرى أنه يستحق ذلك لأنه يؤدي أعمالاً جليلة لا تقل في الأهمية عن الأعمال التي تؤديها الآلهة، وأنه إذا غزا العرب فإنه سيمنحهم حق إنشاء حكومة خاصة بهم بما يتفق مع عاداتهم

وتقاليدهم كما فعل مع أهل الهند، كما أنه كان قد سمع عن ثراء العرب وخصب بلادهم وطيوب بلاد العرب وحاصلاتها الثمينة، فقد سمع أن العرب يحصلون على (القرفة/الدارصيني) والمر والبخور من الأشجار فضلاً عن القرفة الهندية ومرهم الناردين بدون أية صعوبات في زراعتها، وفيما يتصل بحجم بلاد العرب فقد سمع الإسكندر بأن سواحل بحر بلاد العرب لا تقل في مساحتها عن ساحل الهند، وبأنه بالقرب من ساحل بلاد العرب توجد مجموعة من الجزر، وتنتشر في كل أرجاء تلك البلاد الموانئ التي من الممكن أن توفر مراسي جيدة لأسطول الإسكندر وتتوفر بتلك البلاد مواقع صالحة لإنشاء مدن مزدهرة[٦] .

وكان الإسكندر لديه علم بأنها توجد في الخليج العربي جزيرتان، إحداهما عند مصب نهر الفرات في الخليج العربي أطلق عليها الإسكندر اسم إيكاروس (Icarus) مثل اسم جزيرة أخرى توجد في بحر إيجه[٧] .

وهي جزيرة (فيلكه) الحالية الواقعة في بداية الخليج العربي، على الجانب الشمالي من خليج الكويت ويبلغ طولها ٧ أميال وعرضها ٣ أميال[٨] أما الجزيرة الأخرى فتبعد عن الأولى حوالي رحلة بحرية لمدة يوم وليلة وقد أسماها الإسكندر تيلوس (Tylus)[٩] وهي (البحرين) الحالية وقد ذكر (أريان) أنها كبيرة وتنتج من كل أنواع الثمار[١٠] .

ويبدو أن الإسكندر توقف عند جزيرة (فيلكه) بعد عودته من الهند، وقد عثر فيها على آثار وبنايات متعددة بضمنها بيت يتألف من اثنتي عشرة حجرة، عثر في واحدة منها على قالب يمثل الإسكندر المقدوني بعيون واسعة وأنف روماني، كما عثر بها على صخرة مدونة باللغة اليونانية كانت مكرسة للإله (زيوس) و(بوسايدون) — رب البحار اليوناني — والإلهة (أرتميس) ربة

الجزيرة، وربما استعمل الملاحون الذين كانوا يمخرون مياه الخليج العربي من العراق وإليه هذه الجزيرة للراحة والتزود بالماء العذب والطعام وعبادة الربة (أرتميس)(١١) . ومن الواضح أنه كانت توجد حامية يونانية في هذه الجزيرة لعلها من بقايا الجيش الذي بعث به الإسكندر للسيطرة على الخليج العربي ولفتح الهند والجزر المقابلة لبلاد العرب وسواحـــل شبه الجزيرة العربية(١٢) .

وقد عثرت البعثات الأثرية في هذه الجزيرة على مجموعة من الآثار بضمنها أنواع من الفخار والأختام والآجر ترجع إلى عهود متباينة وموغلة في القدم بل وأقدم من عهود اليونانيين، وترجع بتاريخ الجزيرة إلى حوالي الألف الثالث قبل الميلاد(١٣) كما تم العثور بها على عملات نقدية يونانية تم صكها باسم الإسكندر الأكبر في أيام (سلوقس الأول) (٣١٠-٣٠٠)ق.م(١٤) .

مما لاشك فيه أن وجود تلك الشواهد الأثرية والعملات النقدية اليونانية يدل دلالة واضحة على عمق الصلات بين مراكز الخليج العربي وبلاد اليونان ثم محاولات اليونان بسط سيطرتهم على الخليج العربي .

ومن المدن التي بناها الإسكندر في الخليج العربي (شاراكس/خاراكس) (Charax) وهي (المحمرة)، والتي بناها عند ملتقى نهر (كارون) بدجلة، وقد تحدث عنها (بلليني الأكبر) وذكر أنها مدينة في بلاد العرب وعدها بداية حدود العربية السعيدة وجزءاً منها(١٥) .

وقد دعيت (الإسكندرية) نسبة إلى (الإسكندر)، وتعرضت المدينة للتخريب جراء فيضانات الأنهار وإغراقها لها أكثر من مرة، ثم أعاد بناءها (أنطيو خوس الرابع) (Antiochus Epiphanes IV) (١٧٥-١٦٣)ق.م، ودعيت باسمه ثم تخربت مـــرة أخـــرى فرممهـــا وأعـــاد بناءهـــا الملك (سباسينس/سباسينوس)

ملك العرب المجاورين، وأنشأ لها سداً لحمايتها، وأسماها باسمه (Charax Spasinou)[١٦] .

ومما لاشك فيه أن اهتمام الإسكندر ببناء مدينة (المحمرة/الكرخة)، ارتبط بمشروعه الكبير في السيطرة على بلاد العرب، إذ كان يعدها مركزاً تجارياً مهماً في التجارة مع الهند وبلاد العرب[١٧] .

وبعد أن بسط الإسكندر سلطانه على حدود السند في النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد، أبدى اهتماماً كبيراً لإعادة النشاط التجاري بين ساحل السند والخليج العربي، فأرسل بعثة استكشافية لهذا الغرض تحت قيادة (نيرخوس) (Nearchus) غير أن الأقدار حالت بين الإسكندر وطموحاته فمات عام ٣٢٣ ق.م قبل أن يحقق طموحاته[١٨] .

وقد كان على خلفاء الإسكندر من السلوقيين والبطالمة، أن يحققوا المشروع التجاري الكبير الذي كان قد بدأه الإسكندر . ومن الواضح أن (بطالمة) مصر كانوا أنشط من السلوقيين في مجال الاشتغال بالتجارة البحرية الجنوبية، والاستفادة من البحر، إذ وجهوا أنظارهم نحو البحار الجنوبية، فأرسلوا بعثات كشفية متعددة لدراسة أحوال البحر الأحمر والسواحل والشعوب المطلة عليه وثروته[١٩] .

وكان من المتوقع من ملوك السلوقيين الذين بسطوا سلطانهم على سوريا أن ينشئوا تجارة رابحة مع الهند والبحر المتوسط من خلال الخليج العربي، سالكين الطريق البحري الذي وضع معالمه نيارخوس (Nearchus)، ثم تعبر تلك التجارة إمبراطوريتهم في أرض الجزيرة وشمال سوريا، ويبدو أنهم ركزوا

جل اهتمامهم في الحصول على الفيلة من الهند براً عن طريق إيران، كما كان خصومهم البطالمة في مصر يجلبونها من الحبشة لأغراض حربية[٢٠].

غير أن ذلك لا يعني غياب الصلات التجارية بين مراكز الخليج العربي والهند، فقد أرسل (سلوقس نيكاتور) (٣١٢-٢٨٠)ق.م كل من (ميجاستنيس) (Megasthenes) و(ديماخوس) (Deimachos) إلى ملك الهند (تشاندرا جوبتا) وخليفته (بندوسارا) (Bindusara)، وإلى (باتالي – بوترا) (Pataliputra)، وإلى بلاط مملكة (موريا) (Maurya) وهي دولة هندية أسسها الملك (تشاندرا جوبتا) حوالي ٣١٥ق.م[٢١].

ومما يذكر أن ملك الهند (تشاندرا جوبتا)، أقام عدداً من الموظفين للاتصال بالأجانب والسهر على راحتهم أثناء زيارتهم للهند، ونستنتج من كل ذلك أن التجارة بين الخليج العربي وبلاد الهند لم تكن قد وقفت تماماً أو هبطت لدرجة كبيرة في عهد السلوقيين[٢٢] إذ كان النشاط التجاري متركزاً بيد العرب وبخاصة في (الجرها) (Gerrha) على ساحل الاحساء على الأقل منذ القرن الثالث قبل الميلاد، ولم يتمكن السلوقيون من بسط هيمنتهم على الخليج العربي والاتجار به، لأن حكومتهم في العراق كانت ضعيفة[٢٣] ومهما يكن من أمر فقد أدى دخول اليونان إلى البحار الجنوبية من الخليج العربي والبحر الأحمر، إلى احتكاك مباشر بين الثقافات اليونانية والثقافات الشرقية، إذ تم العثور على كتابات يونانية في مواضع متعددة من الخليج العربي، تتحدث عن وجود اليونان في تلك المواضع، فقد تم العثور على كتابات من أيام السلوقيين في جزيرة (فيلكا) من جزر الكويت، تلك الجزيرة الصغيرة التي كشفت البعثة الدنمركية عن بعض أسرارها الأثرية والتاريخية، أثناء قيامها بحفرياتها بها، إذ تم العثور على آثار ترجع إلى العصور البرونزية والحديدية، ثم على آثار تدل

على صلات الجزيرة بالجزر الأخرى مثل (دلمون/البحرين) وصلاتها بالفرس ثم اليونان زمن (الإسكندر المقدوني) وخلفائه[٢٤] .

ثانياً : أهم المدن والمراكز التجارية في الخليج العرب وصلاتها التجارية ببلاد الهند :

تومئ الشواهد الأثرية والتاريخية التي تم العثور عليها في مراكز حضارية متعددة في الخليج العربي إلى وجود صلات ثقافية وتجارية مبكرة منذ فجر التاريخ على الأقل منذ الألف الثالث قبل الميلاد، بين الخليج العربي وبلاد الهند والشرق الأقصى، وقد جاءت المصادر الكلاسيكية اليونانية والرومانية مؤيدة لتلك الصلات وأبرزت دور عرب الخليج العربي في الوساطة التجارية بين أصقاع الشرق الأقصى وخاصة بلاد الهند وشعوب العالم الغربي القديم، وذلك من خلال عدد من المدن والمراكز التجارية التي ازدهرت في الخليج العربي، وسيكتفي الباحث بذكر أبرزها :

(جرهاء) **(Gerrha)** : وهي مدينة مهمة على ساحل الاحساء، وقد تباينت آراء المؤرخين والدارسين فيما يتصل بتحديد موقعها، غير أن فريقاً كبيراً منهم يرى أنها (الجرعاء) أو (العجير) وكانت الجرعاء قائمة بالقرب من ميناء (العجير) الحالي[٢٥] وكانت من مدن منطقة الخليج العربي المهمة خلال العصر الهيلنستي[٢٦] . ويذكر (الهمداني)[٢٧] أن (الجرهاء) هي (الجرعاء) وهي سوق الاحساء التي تتابع عليها العرب .

ويذكر (إيراتو سثنيس) **(Eratosthenes)** (٢٧٦-١٩٦)ق.م أن (الجرهاء/**Gerrha**) مدينة تقع على خليج عميق ويسكنها الكلدانيون المنفيون

من (بابل)، وأنها تحتوي على الملح، ويعيش سكانها في بيوت مبنية من صخور الملح وترش جدرانها بالماء باستمرار نتيجة لحرارة الشمس اللاذعة، مما قد يؤدي إلى سقوطها، وبذلك يحافظ أهلها على صلابة وتماسك جدران منازلهم[٢٨] . وتبعد مدينة (جرها) عن مياه الخليج العربي حوالي مائتي (ستاديا)[٢٩] كما يذكر (إيراتوستنيس)، ويعمل الجرهائيون في تجارة طيوب وبضائع بلاد العرب عن طريق البر غير أن (أرسطوبولس) (Aristobulus)[٣٠] يقول : إن الجرهائيين يستوردون تجارتهم بواسطة المراكب الخشبية، سالكين طريقاً مائياً إلى (بابل) ثم يبحرون بها إلى الفرات، وبعد ذلك ينقلونها براً إلى شتى الأصقاع[٣١] .

ويتضح لنا من حديث (إيراتوستنيس) السابق، أن أهل (الجرهاء) كانوا ينقلون تجارتهم بحراً عبر الخليج العربي بواسطة المراكب الخشبية فضلاً عن طريق البر بواسطة القوافل التجارية .

وكانت (الجرهاء) في القرن الثالث قبل الميلاد مركزاً أساسياً للتجارة الهندية، إذ كان أهلها العرب آنذاك سادة الملاحة في الخليج العربي[٣٢] . وكان تجار (الجرهاء) من أنشط التجار فقد تاجروا مع عرب جنوب الجزيرة (اليمن) إذ ذكر (إيراتوستنيس) أن الجرهائيين كانوا يصلون إلى (حضرموت) خلال أربعين يوماً[٣٣] .

ويحدثنا (أجاثرشيدس) الكنيدي المتوفى حوالي عام ١٢٠ قبل الميلاد قائلاً : "لا يبدو أن ثمة شعباً أغنى من الجرهائيين والسبأيين، فقد كانوا وكلاء لكل شيء يقع تحت اسم النقل من آسيا وأوروبا، وأنهم الذين جعلوا من سوريا البطلمية غنية بالذهب وأتاحوا للتجار الفينيقيين تجارة رابحة وآلافاً من الأشياء الأخرى"[٣٤] . ويذكر (أجاثارشيدس) أن الجرهائيين نافسوا السبأيين

بالتجارة، وأن (الجرهاء) تعد محطة تجارية أساسية على الساحل الشرقي لبلاد العرب[٣٥] كما تاجر الجرهائيون مع (سلوقيا) **(Seleucia)** (تل عمر) الحالية على نهر دجلة التي أسسها (سلوقس/نيكاتور) عام ٣٠٥ ق.م عاصمة لملكه، وقد تطورت مدينة (جرهاء) وأصبحت سوقاً كبيراً لتجارة التبادل بين عرب شبه الجزيرة العربية وممرا تجارياً مهماً لبضائع الهند[٣٦] .

وقد اكتسبت (الجرهاء) شهرة واسعة في عالم التجارة آنذاك بسبب مركزها التجاري الممتاز الذي وصفه (بوليبيوس) **(Polybios)** (٢٠٤-١٢٢ ق.م) وذكر أنها كانت ملتقى القوافل القادمة من بلاد العرب الجنوبية (اليمن) وسوريا والعراق والحجاز وبلاد الهند وكانت مرتبطة بحراً مع (باتالا) (حيدر أباد)[٣٧] وكانت صلتها التجارية بالهند متوطدة فضلاً عن قيام الجرهائيون بتوريد البخور والمر والورس وغير ذلك من منتجات بلاد العرب الجنوبية إلى بلاد ما بين النهرين، كما أنهم حاولوا منافسة المعينيين في التجارة مع مناطق حوض البحر المتوسط[٣٨] وقد هاجم (أنتيوخوس الثالث) **(Antiochus III)** (الجرهاء) عام ٢٠٥ ق.م بهدف الاستيلاء على تلك المدينة الغنية الكانزة للذهب والفضة واللؤلؤ والأحجار الكريمة وإلحاقها بحكومته، ولكن أهلها استرضوه بمقادير وفيرة من الفضة واللبان والمر وطلبوا من الملك (أنتيوخوس الثالث) ألا يقضي على ما أعطتهم الآلهة من سلام وحرية خالدين، فرضي الملك وعاد بحملته حاملاً جزية كبيرة من الفضة والأحجار الكريمة والبخور، وبذلك اشترت الجرهاء سلامها وحريتها من ذلك الطامع بالمال[٣٩] .

ومن الجدير بالملاحظة، أن تجار الخليج العربي لاسيما تجار الجرهاء استمروا في وساطتهم التجارية مع بلاد الهند والشرق الأقصى، قروناً عديدة بدون أية محاولة للتدخل من قبل اليونان السلوقيين، باستثناء ما حدث من قبل (أنتيوخوس الثالث)، ولا يخفى أن السلوقيين كانت لهم تجارة واسعة مع

(خاراكس) (Charax) وجارتها (أبولوجوس) (Apologus)[٤٦] وهما على التوالي (المحمرة/الكرخة) و(الأبلة) اللتان حققتا شهرة واسعة لاسيما في القرن الأول الميلادي الذي اشتد فيه الإقبال على السلع والكماليات المستوردة من الهند والصين في كل من روما والإسكندرية والمدن الأخرى، لذلك يعد القرن الأول الميلادي أزهى عصور تجارة الهند مع الغرب، ومن الواضح أن عرب الخليج كان لهم دور أساسي في التجارة في عصر الإمبراطورية الرومانية، وكانوا في الواقع هم المسيطرين الحقيقيين على التجارة الدولية في الخليج العربي الممر المائي الدولي[٤٧].

(خاراكس/شراكس - Charax) (المحمرة/الكرخة):

ذكرنا سلفاً أنها من بناء (الإسكندر المقدوني) الذي أطلق عليها (الإسكندرية) نسبة إليه، وقد تحدث عنها (بلليني الأكبر)، بشيء من التفصيل، وذكر أنها تقع في أقصى فجوة من الخليج العربي، وأنها تعد باب العربية السعيدة، وحدد موقعها عند ملتقى نهر (قارون/كارون) بنهر دجلة، وأنها شيدت على مرتفع صناعي ويبلغ عرضها زهاء ميلين، وقد أسكن بها (الإسكندر) من بقي من سكان مدينة (ديورين/Durine) الملكية التي دمرت حينئذ كما أسكن بها من بقي من جنوده المرضى والمقعدين وخصص بها مقاطعة للمقدونيين (Macedonians) أسماها (بلايوم/Pelaeum) تخليداً للمكان الذي ولد فيه (الإسكندر)[٤٨].

وقد عمل النهران عملهما في تخريب تلك المدينة وتم إعادة بنائها من قبل الملك السلوقي (أنتيوخوس الخامس) ملك سوريا وأطلق عليها اسمه فسميت (Antiocheia)، ثم خربتها فيضانات الأنهار وأعاد بناءها ملك العرب

المجاورين (سباسينس)، وأطلق عليها اسمه فدعيت (Spasinu-Charax) وقد شيد لها رصيفاً لحمايتها ورفع مستوى الأرض المجاورة لها مسافة ٦ أميال طولاً وأقل من ذلك بقليل عرضاً، وتبعد المدينة عن ساحل البحر زهاء ١٢٠ ميلا في زمن بلليني[٤٩] .

وكانت توجد بمدينة (خاراكس) جاليات متباينة من اليونانيين والتدمريين والرومان والأنباط بهدف التجارة إذ كانت مركزاً للتجارة مع الهند وكانت اتصالاتها البحرية ببلاد الهند تمتد إلى (بارباريكون) عند مصب نهر السند، وكان تجار (خاراكس) يجنون أرباحاً طائلة من تجارة الهند لاسيما بعد أن اشتدت المنافسة بين تجار (تدمر) في سوريا والأنباط على بضائع هذه المدينة، فقد كان التجار من الأنباط وسواهم يقومون بنقل السلع الهندية من (خاراكس) عبر الخليج العربي إلى البتراء، ثم يتم تجهيزها للغرب الروماني[٥٠] .

ويرى بعض الدارسين أن هذه المدينة قد استقلت عندما ضعفت قوة السلوقيين في الشرق وكونت دولة تعرف بـ (ميسان)[٥١]، وفي العصر الروماني كانت مسيطرة على تجارة الخليج العربي – فضلاً عن جارتها الأبلة – وكانت لها صلات دبلوماسية مع روما، ويبدو أن الملوك (الفرثيين) لم يتدخلوا في شئونها، وقد كان لها عملة نقدية خاصة بها، كما سمحت بتناول عملات البلدان الأخرى بها بما يتلاءم مع مركزها الدولي[٥٢]، وذلك يدل على بعض مظاهر الرخاء والازدهار الحضاري الذي تمتعت به مدينة (خاراكس) .

وقد وصفها الرحالة القدماء، وتوافد لزيارتها الملوك، منهم الملك (عبود) ربما ابن (سباسينوس) السالف الذكر، الذي أسس أسطولاً في الخليج العربي استعمله لحماية الطريق التجاري مع الهند[٥٣] .

كما زارها الرحالة الصيني (كان ينكك) عام ٩٧م ووصفها في كتابه (رحلة في البحر الكبير – الخليج العربي – ومدينة الكرخة)[٥٤] وذكر (بلليني الأكبر أنها كانت مسقط رأس الجغرافي الكبير ديونيسيوس (Dionysius)[٥٥] .

وبقدر اتصال الأمر بالتجارة، فقد كانت (خاراكس) ملتقى التجار من شتى الأصقاع، وسوقاً كبيراً للبضائع الشرقية القادمة من الهند والصين، والسلع القادمة من أسواق البحر المتوسط[٥٦] فضلاً عن سلع جنوب الجزيرة العربية (اليمن القديم) .

ومما يذكره المؤرخون أن الإمبراطور الروماني (تراجان) (٩٨–١١٧)م وقف على شاطئ الخليج العربي عند كرخ ميسان فرأى سفينة تمخر مياه الخليج متجهة إلى الهند فتأسف لتقدم العمر به فلم يعد بوسعه عبور المياه والوصول إلى أصقاع الهند والشرق الأقصى[٥٧] .

وقد ساعدت الظروف الطبيعية والسياسية على نجاح مدينة (خاراكس) مما جعلها مركزاً تجارياً مهماً بين الشرق والغرب لمدة تقارب (ثلاثة قرون ونصف القرن)، وتبعاً للظروف السياسية التي كانت تسود المنطقة فإن ولاء (خاراكس) كان يتأرجح بين الرومان (والفرثيين) وذلك بما يتفق مع مصالحها، ولكنها على الرغم من ذلك ظلت تتمتع بقدر وافر من الاستقلال والازدهار حتى مجيء (الساسانيين) عندما سار (أردشير الأول) إلى ميسان) واستولى على مدنها (خاراكس) و(فرات) وقتل ملكها (باندو)، ونظراً للعداء والصراع الذي كان بين الدولتين الرومانية والساسانية، فقد تناقصت علاقات (خاراكس) بالغرب وتناقص قدوم تجار مدينة (تدمر) إليها بعد التدمير والخراب الذي حل بتدمر على يد الرومان[٥٨] .

ولكن (خاراكس) على الرغم من كل ذلك ظلت من خلال (الفرات) و(الأبلة) مركزاً للتجارة الهندية في العهد الساساني وبخاصة عندما سيطر الساسانيون على تجارة المحيط الهندي في القرن السادس الميلادي، وبقيت (خاراكس) كذلك حتى مجيء الإسلام، وأصبحت تعرف لدى المؤرخين المسلمين باسم كرخ ميسان وفرات البصرة(٥٩) .

الأُبُلّه Apologos :

ميناء على رأس الخليج العربي، ويعتقد بعض الدارسين أنها ميناء مدينة (فرات) التابع لـ (خاراكس)، أو أنها ميناء (طريدون)(٦٠) في حين يرى آخرون أنها (قرية كوت الزين) الواقعة جنوب (أبي الخصيب)، وأنه أطلق عليها ركيزة الهند لقوة صلتها ببلاد الهند عن طريق الخليج العربي(٦١) .

والأبلة ميناء عتيق يعود تاريخه إلى عهد البابليين والأشوريين، غير أنها فقدت أهميتها عند ظهور ميناء (طريدون) في العصر السلوقي، لذلك لا نجد لها ذكراً في المصادر الكلاسيكية (اليونانية والرومانية) باستثناء كتاب (دليل البحر الأرثيري)(٦٢) .

وقد ذكر (Apologos) مع (أمانا/Ommna) ذكر أنها مدينة أسواق كبيرة تأتي إليهما السفن الكبيرة من (بريجازا) السالفة الذكر بانتظام، وهي محملة بخشب الصندل والنحاس وخشب الساج والخشب الأسود وخشب الأبنوس، ومن سوق هاتين المدينتين يصدر إلى الهند وإلى بلاد العرب أيضاً الكثير من اللؤلؤ والأرجوان والثياب المصنوعة هناك على طراز زي تلك البلاد (الخليج العربي) والخمر وكميات كبيرة من التمر والذهب والرقيق(٦٣) وبذلك كانت

الأبله مركزاً تجارياً دولياً معترفاً به وسوقاً دولية للمتاجرة مع بلاد الهند وبلاد العرب، وكانت السفن التجارية تتوافد إليها من شتى الأصقاع في عصر الإمبراطورية الرومانية، ونظراً للنشاط التجاري الواسع الذي شهدته (الأبله) لاسيما مع بلاد الهند فقد عرفت في المصادر التاريخية بـ (فرج الهند) و (فرضة البحرين وعمان والهند والصين) وإنها (مرفأ سفن البحر من عمان والبحرين وفارس والهند والصين)[٦٤] .

وكانت كل من (الأبلة) و (خاراكس) تتجران مع الهند فكانت السلع التي تصدرها (أبولوجوس الأبله) إلى اليمن تصدر أيضاً إلى (بريجازا) (**Barygaza**) في خليج (كمباي/**Cambay**) بالهند، وكانت السفن الكبيرة تعود من هناك محملة بالنحاس والأبنوس وأصناف الخشب السالف الذكر، ويتحدث مؤلف كتاب (دليل البحر الأرثيري) عن ميناء يسمى (**Ommana**) (أمانا/عمانه) ويبدو أنه ميناء (صحار) أو مسقط (عمان)[٦٥] .

وكان تجار الخليج العربي يقومون بالتوسط في نقل البضائع من الهند وأفريقية ويوصلونها إلى موانئ العراق أو إلى موانئ الخليج العربي، ثم تنتقل إما بالطرق المائية إلى إيران والعراق، وإما بالطرق البرية، حيث تنقل السلع التجارية إلى مدينة (خاراكس/الكرخه) ثم توزع منها إلى مختلف الأصقاع، أو إلى ميناء (أبولوجوس/الأبله)، ومنها إلى سلوقيا على نهر دجلة مقابل (طيسفون/المدائن) الموضع المعروف اليوم بـ (سلمان باك)، وكانت عاصمة السلوقيين آنذاك، أو إلى مواضع أخرى على نهر الفرات حيث تنتقل منها براً إلى بلاد الشام[٦٦] .

وكان العرب الأنباط ينقلون التجارة من (غزة) على البحر المتوسط إلى (الأبله) على الخليج العربي، كما كانت قوافلهم تتوقف في (تيماء) وتتصل بتجارة العرب المعروفة برحلة الشتاء والصيف التي كانت بين الشام واليمن، وقد ساعد على نمو هذه التجارة النشاط الذي دب في التجارة الهندية في القرن الثاني الميلادي فأدى هذا إلى ازدهار طريق الأبله البتراء وغزة[٦٧] .

ومن ذلك نجد أن الخليج العربي كان طريقاً مهماً للتجارة الدولية لاسيما تجارة الهند والصين التي كانت تحملها السفن صاعدة في الفرات حتى تقترب من البحر المتوسط ومن ثم كان قيام طريق الهلال الخصيب التجاري الكبير، ونشأة مدن تجارية كانت بمثابة المستودعات الضخمة بين بيزنطة ودولة الساسانيين[٦٨] .

ثالثاً : طرق التجارة بين الخليج العربي والهند

أولاً : الطرق البحرية

كان الخليج العربي ميداناً رائعاً للملاحة بين جنوب غرب آسيا والشرق الأقصى، بل إنه كان مدرسة قديمة للملاحة، بسبب وجود مصائد اللؤلؤ به واعتماد أهله على البحر[٦٩] فضلاً عن بعده عن العوامل المؤثرة في بحر العرب، وضحالة مياهه وهدوئه النسبي قياساً على البحار الأخرى، وطول سواحله التي تصل إلى ٢٠٠٠ ميل مما جعله صالحاً للملاحة منذ أقدم العصور[٧٠] .

ويرجع المؤرخون النشاط البحري الكبير للخليج العربي إلى الألف الثالث قبل الميلاد، منذ أيام الحضارة السومرية، وتومئ الآثار التي وجدت في مصر

وكانت توجد طرق أخرى فرعية بين بلاد الهند وبلاد الخليج العربي من خلال موانئ جنوب الجزيرة وعمان ومن هذه الطرق :

١ – طرق كانت تنطلق من شمال غرب وجنوب غرب الهند إلى (أوكليس) عند باب المندب مباشرة وذلك بمساعدة الرياح الموسمية[٧٩] السالفة الذكر .

٢ – طريق آخر كان يتجه من بلاد الهند إلى ميناء (موشا) في (ظفار)، إذ كانت السفن تبحر من الهند متأخرة فتقضي فصل الشتاء في هذا الميناء وتقوم بعملية التبادل التجاري[٨٠] . وهو الطريق الذي أشار إليه مؤلف كتاب (دليل البحر الأرثيري)[٨١] فقد ذكر أن السفن القادمة من الموانئ الهندية (داميريكا)[٨٢] و(بريغازا)[٨٣] إذا وصلت متأخرة فإنها تشتوا في ميناء (موشا) وتمارس التجارة هناك . وكانت تلك السفن تواصل رحلتها فيما بعد عبر الخليج العربي إلى موانئ رأس الخليج العربي لتصل بتجارة الهند إلى شعوب البحر المتوسط[٨٤] .

وكان الإغريق قد عرفوا هذا الطريق البحري الذي يصل العالم الغربي بالهند قبل العصر المسيحي بمدة بعيدة، وربما كان ذلك قبل عهد (سكيلاكس) (**Skylax**) صديق هيرودوتس، وقبل زمن (نيرخوس) (Nearchus) والإسكندر الأكبر، واستعمل هذا الطريق البحري لإرسال البضائع إلى (سلوقية) على نهر الفرات، ومن (خاراكس) (المحمرة/الكرخة) عبر الخليج العربي، وعلى طول الساحل الجنوبي لـ (جدروسيا) (Gedrosia) (ساحل كرمانيا) إلى (باتالا) (Patala) (حيدر أباد) في أسفل نهر السند[٨٥] .

وقد هُجر طريق الخليج العربي بعد ذلك في عهد السلوقيين عندما فقدوا السيطرة على (سوريا)، كما تأثر ذلك الطريق بسبب العداء بين الفرس والروم

إذ كانت البضائع الهندية المنقولة إلى الخليج العربي ومن ثم إلى روما، تمر ببلاد الفرس[٨٦] .

ثانياً : الطرق البرية :

تذكر المصادر الكلاسيكية (اليونانية والرومانية) أن السفن التجارية كانت تأتي من بلاد الهند وهي محملة ببضائع تلك البلاد وترسو في موانئ جنوب الجزيرة العربية (اليمن القديم) مثل (عدن) **(Eudaemon Arabic)** و(قنا/ بير علي) **(Cana)** وأوكليس **(Ocelis)** عند باب المندب، وتفرغ حمولتها في تلك الموانئ، وكان التجار يأتون إليها للبيع والشراء من شتى الأصقاع[٨٧] ومن ضمنهم تجار الخليج العربي لاسيما الجرهائيون الذي يذكر (إيراتوسثنيس) أنهم كانوا يصلون إلى حضر موت في ٤٠ يوماً[٨٨] . وكانت البضائع تنتقل براً من (عدن) و (قنا) و(أكليس) إلى (شبوه) و(تمنع) مراكز تجميع المواد العطرية (اللبان) و(المر) ثم تنتقل عبر طرق القوافل التجارية إلى شرق الجزيرة العربية وشمالها ومنها شعوب البحر المتوسط[٨٩] .

وخلال القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد، كان التجار ومن ضمنهم تجار الخليج العربي، بعد أن يشتروا بضاعتهم يقومون بتعبئتها في شولات جلدية ومن ثم يتم تسويقها من خلال طريقين رئيسيين :

الأول : ينطلق من الحاضرة الحضرمية(شبوه) حتى (الجرهاء) على الخليج العربي[٩٠] وكانت القوافل تقطع هذا الطريق خلال ٤٠ يوماً[٩١]، وكان

و(البتراء)[١٠٠] فضلاً عن عدد آخر من الطرق الفرعية التي كانت تخترق شبه الجزيرة العربية بشتى اتجاهاتها .

رابعاً : البضائع والسلع التي تاجر بها الخليج العربي مع بلاد الهند :

توسطت بلاد العرب وبخاصة الخليج العربي مع بلاد الحضارات القديمة بين أشور ومصر وفينيقيا وبلاد اليونان وبين الهند وجزرها، لذلك كان هناك العديد من السلع التي تم تصديرها بحرياً وبرياً إلى شتى الأصقاع، وكانت موانئ بلاد العرب وبضمنها موانئ الخليج العربي تستورد العديد من السلع الشرقية، وكانت هذه السلع تنقل براً وبحراً إلى شعوب البحر المتوسط وبلاد الرافدين، ومما ساعد على رواج تجارة بلاد العرب بضمنها (الخليج العربي) موقعها بين منطقتين مهمتين :

الأولى شرق آسيا والهند وهي منطقة منتجة بالدرجة الأولى وبخاصة بلاد الهند التي كانت تعد مخزنـــاً للسلع التي كانت تحتاجهـــا شعوب الغرب بشدة .

والثانية عالم البحر المتوسط وهي منطقة مستهلكة بالدرجة الأولى، وقد نجح تجار الخليج العربي وبخاصة الجرهائيون في الإفادة من هذا الموقع ليكونوا وسطاء تجارة بين هاتين المنطقتين[١٠١] .

وامتازت بلاد الهند منذ أقدم العصور بوفرة وتنوع إنتاجها النباتي والحيواني والمعدني، كما أنها اشتهرت بجودة صناعتها المتنوعة القائمة على

ذلك الإنتاج الطبيعي، ثم إنها تجاور من الناحية الشرقية بلاد الصين التي اختصت بطائفة أخرى من السلع والحاجيات والكماليات التي لم يكن للعالم الغربي بد من اقتنائها لحاجته الشديدة إليها[١٠٢] وكانت بضائع وسلع بلاد الهند والشرق الأقصى تجد طريقها إلى الغرب على يد التجار العرب وبخاصة تجار الخليج العربي . ومما يدل على الاتصال الوثيق المستمر بين الخليج العربي وبلاد الهند، أن (الأبله) الواقعة في أعالي الخليج العربي جنوب البصرة، كانت تعرف بـ (فرج الهند)[١٠٣] و (فرضة البحرين وعمان والهند والصين)[١٠٤] ويمكننا إيجاز البضائع والسلع التي تاجر بها الخليج العربي مع بلاد الهند بالآتي :

الصادرات :

١ – **اللؤلؤ** : يأتي اللؤلؤ الخليجي على رأس الصادرات الخليجية وقد ذكر صاحب كتاب (دليل البحر الإرثيري) أن الخليج العربي كان يعج بالقوارب التي تبحث عن اللؤلؤ[١٠٥] وتذكر المصادر العربية أن صيد اللؤلؤ يمثل دعامة مهمة من دعائم اقتصاد (البحرين) وتسهب المصادر في طرق صيده ونظام بيعه وتصديره[١٠٦] لاسيما إلى بلاد الهند[١٠٧] .

٢ – **المواد العطرية** : ويراد بها اللبان والمر ودم الأخوين وغير ذلك من العطريات، وكانت تتصدر قائمة الصادرات إلى بلاد الهند[١٠٨] .

٣ – **الخمر والقمح والتمور** : ورد في كتاب (دليل البحر الإرثيري) أن هذه المواد كانت ضمن صادرات بلاد العرب[١٠٩] لاسيما إلى بلاد الهند وشرق أفريقيا[١١٠] .

٧ — **الألوان والأصباغ** : ومنها الأرجوان والقرمز والنيلج (**nili**) والهرد والبقم والصرف والورس[١٢٧] .

٨ — **زيت السمسم** (السيرج)، السمن الهندي، وكانت شبه الجزيرة العربية تستورده للتصدير الخارجي لأنها كانت مكتفية وكان يتم استيراده من شمال الهند[١٢٨] .

٩ — **المعادن والمصنوعات الأخرى** : الأنك والأسرنج والكلس والتنكار فضلاً عن الذهب، والسيوف والأرماح والفانيذ (نوع من الحلوى)[١٢٩] والانبجات (المربات)[١٣٠] والداذي والغضائر والتوتياء والنعال الكنباتية (من إقليم كنبايت)[١٣١] وغير ذلك من بضائع وسلع الهند والشرق الأقصى .

نتائج الدراسة :

من خلال دراستنا لموضوع الصلات التجارية بين الخليج العربي وبلاد الهند في العصرين الهلنستي والروماني خلال المدة (٣٣٣ ق.م — ٢٠٠م)، يمكننا استخلاص النتائج العامة الآتية :

١ — إن الصلات التجارية بين مراكز الخليج العربي وبخاصة (دلمون/البحرين) وبين بلاد الهند والشرق الأقصى، موغلة في القدم إذ ترجع على أقل تقدير إلى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد .

٢ — كان الخليج العربي خلال العصرين الهلنستي والروماني، حلقة وصل تجاري وفكري وحضاري بين العالمين الشرقي والغربي، إذ كان له دور غير بسيط في نقل المؤثرات الحضارية بين الشرق والغرب .

٣ – أن اهتمام اليونان بالخليج العربي ومراكزه التجارية خلال العصر الهلنستي وبخاصة زمن (الإسكندر الأكبر) كان لتحقيق هدفين أحدهما تجاري يتصل بتجارة اليونان مع بلاد الهند، والآخر استراتيجي يتصل بالسيطرة على شبه الجزيرة العربية وتطويقها من جميع الجهات بدءاً بالخليج العربي .

٤ – على الرغم من ضعف النشاط التجاري للسلوقيين مع بلاد الهند في العصر الهيلنستي، إلا أن تجارة الخليج العربي مع بلاد الهند ظلت نشطة بواسطة التجار من أبناء الخليج العربي، وكانت (خاراكس – Charax) والجرهاء من أنشط موانئ الخليج العربي خلال هذه الحقبة .

٥ – تعد (الجرهاء/العجير) و(خاراكس/المحمرة)، من أقدم المراكز التجارية في الخليج العربي ذات الصلة بالتجارة مع بلاد الهند .

٦ – كان تجار (الجرهاء) من أنشط تجار شبه الجزيرة العربية في تجارة النقل، بل نافسوا تجار سبأ في تجارة الطيوب والتوسط في نقل سلع الهند والشرق الأقصى إلى شعوب البحر الأبيض المتوسط وبلاد الرافدين، غير أن دور (الجرهاء) التجاري توارى منذ القرون الميلادية الأولى، إذ انتقل النشاط التجاري منها إلى مراكز أخرى مثل (خاراكس) و (الأبله) .

٧ – تعد (خاراكس) و(الأبلة) من أبرز مراكز الخليج العربي التجارية مع بلاد الهند وبخاصة في العصر الروماني إذ عرفت (الأبله) في المصادر التاريخية بـ (ركيزة الهند) و(فرضة البحرين وعمان والهند والصين)، وذلك لقوة صلاتها التجارية ببلاد الهند عن طريق الخليج العربي .

٨ – تأثرت تجارة الخليج العربي البرية التي كانت تتم عبر أراضي بلاد فارس في العصر الروماني بسبب الحروب التي كانت تشب بين القوتين روما وفارس، إذ كان الفرس يعمدون إلى قطع الطريق البري المعروف بـ (طريق الحرير) الذي كان يأتي من الشرق ويمر عبر أراضي فارس باتجاه الغرب إلى

١٦ – ينظر : Pliny, Natural History Bk. VI, P.453. ؛ جواد علي، المفصل، ج٢، ص١٢–١٣ ؛ حوراني، جورج فضلو، العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى، ترجمه وزاد عليه، السيد يعقوب بكر، راجعه وقدم له، يحيى الخشاب، مكتبة الأنجلو المصرية، (؟) ص٤٦ .

١٧ – الأحمد، الخليج العربي في التاريخ القديم، ص٨١–٨٢ .

١٨ – ينظر : السيد محمود يوسف، علاقات العرب التجارية بالهندمنذ أقدم العصور إلى القرن الرابع الهجري .

١٩ – ينظر : جواد علي، المفصل، ج٢، ص٢٢ ؛ الناصري، سيد أحمد علي، الصراع على البحر الأحمر في عصر البطالمة، دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثاني، جامعة الرياض، ١٩٧٩، ص٤٠٧–٤٠٩ .

٢٠ – ينظر : حوراني، العرب والملاحة، ص ص٤٥ .

٢١ – ينظر : البكر، العرب والتجارة الدولية، ص٧٧–٧٨ ؛ جواد علي، المفصل، ج٢، ص٢٢ ؛ السيد محمود يوسف، علاقات العرب التجارية بالهند، ص١١ .

٢٢ – السيد محمود يوسف، المرجع السابق، ص١١ .

٢٣ – ينظر : حوراني، العرب والملاحة، ص٤٣ ؛ جواد علي، المفصل، ج٢، ص٣٣ .

٢٤ – ينظر : جواد علي، المفصل،ج٢ ، ص٣٠–٣٢ .

٢٥ – ينظر : حوراني العرب والملاحة، ص٤٣ ؛ جواد علي، المفصل، ج٢، ص١٧–١٨ ؛ الأحمد، الخليج العربي، ص٨٣ ؛ البكر، العرب والتجارة الدولية، ص٨٣–٨٤ .

٢٦ – الأحمد، الخليج العربي، ص٨٣ .

٢٧ – الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت٣٥٠)، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، مكتبة الإرشاد، صنعاء١٩٩٠م، ص٢٥١ .

٢٨ – Eratosthenes, in: Strabo, The Geography of Strabo, translated by, Horace Leonard Jones, the loeb classica library, London, 1966, BK XVI, Ch. 3.

٢٩ – (الإستاديا) وحدة قياس يونانية تساوي ٤٠٠ ذراع ؛ جواد علي، المفصل، ج٢، هـ ٥، ص١٤ .

٣٠ – (أرستوبولس) : أحد قادة الإسكندر المقدوني الذين أرسلهم لكشف سواحل الجزيرة العربية ؛ Arrian, Anabasis, The Greek Historians, ch. 20, p. 611.

٣١ – Eratosthenes, in: Strabo, The Geography of Strabo, BK. XVI, Ch. 3.

٣٢ – البكر، العرب والتجارة الدولية، ص٨٤ .

٣٣ - Eratosthenes, opcit, ch. 4

٣٤ - Agatharchides, In: Bunbury, E. H., A History of ancient geography, among the Greek and Romans from the Earliest Ages till the fall of the Rom Empire, New York, 1932, Vol. 2, P.58-59.

ينظر : حوراني، العرب والملاحة، ص٥٩-٦٠ .

٣٥ - Agatharchides, In: Bunbury, E. H., A History of ancient geography, Vol. 2, P. 60.

٣٦ – ينظر : البكر، العرب والتجارة الدولية، ص٨٣،٧٨ .

٣٧ - Agatharchides, In: Bunbury, E. H., A History of ancient geography. Vol. 2, P. 59.

٣٨ – السيد محمود يوسف، علاقات العرب التجارية، ص١١ ؛ مهيوب غالب أحمد، مدخل إلى دراسة التاريخ السياسي والحضاري لجنوب شبه الجزيرة العربية، الكتاب الأول، صنعاء، ٢٠٠٣م، ص٩٠ .

٣٩ – ينظر : حوراني، العرب والملاحة، ص٤٥ ؛ جواد علي، المفصل، ج٢، ص١٦-١٧ .

٤٠ – السيد محمود يوسف، علاقات العرب التجارية بالهند، ص١٦ .

٤١ – ينظر : جواد علي، المفصل، ج٢، ص١٨-١٩ .

٤٢ – لطفي عبد الوهاب يحيى، الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية، دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الأول، جامعة الرياض ١٩٧٩م، ج١، ص٦٠ . ينظر : مهيوب غالب أحمد، الصلات التجارية بين جنوب شبه الجزيرةالعربية ومناطق الهلال الخصيب ومصر خلال الألف الأول قبل الميلاد، مجلة كلية الآداب، جامعة ذمـار، العدد ٣، ٢٠٠٧، ص٢٠ .

٤٣ – لطفي عبد الوهاب، المرجع السابق، ص٦٠-٦١ .

٤٤ – ينظر : مهيوب غالب أحمد، المرجع السابق، ص٩٧-٩٨ ؛ العبادي، أحمد صالح، اليمن في المصادر القديمة اليونانية والرومانية (٤٨٥ق.م – ١٠٠م)، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء ٢٠٠٤م، ص١٧٦-١٧٧ .

٤٥ – ينظر : العبادي، أحمد صالح، اليمن في المصادر القديمة اليونانية والرومانية (٤٨٥ق.م – ١٠٠م)، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء ٢٠٠٤م، ص١٤٣-١٤٤ .

٤٦ – ينظر : حوراني، العرب والملاحة، ص٤٥-٤٦ ؛ البكر، العرب والتجارة الدولية، ص١٠٠ .

٤٧ – ينظر: السيد محمود يوسف، علاقات العرب التجاريةبالهند، ص١٧ ؛ البكر، العرب والتجارة الدولية، ص١٠٣ .

ينظر : مهيوب غالب، الصلات التجارية، ص٢٣ .

٩١ – Eratosthenes, in: Strabo, XVI, Ch. 4.

ينظر : مهيوب غالب، الصلات التجارية، ص٢٣ .

٩٢ – مهيوب غالب، الصلات التجارية، ص٢٣ .

٩٣ – ينظر : Pliny, Natural History, BK. VI, XX, P.32.

٩٤ – Brice William. C. The Classical Trade – Routes of Arabic from the Evidence of Ptolemy, Strabo and Pliny, In : studies in the History of Arabia, King Saud University, Riyadh 1979, Vol. II, P. 178.

ينظر : النعيم، الوضع الاقتصادي، ص٢١٧ .

٩٥ – Brice William. C. The Classical Trade – Routes P. 178.

٩٦ – Brice William. Op. Cit. P. 178.

٩٧ – ينظر : النعيم، الوضع الاقتصادي، ص٢١٧ .

Brice William. Op. Cit. P. 178-180.

٩٨ – النعيم، الوضع الاقتصادي، ص٢١٨ .

٩٩ – المرجع نفسه، ص٢١٨ .

١٠٠ – المرجع نفسه، ص٢١٩ .

١٠١ – المرجع نفسه، ص٢٦٣ .

١٠٢ – السيد محمود يوسف، مرجع سابق، ص١ .

١٠٣ – المرجع نفسه، ص٢٢ .

١٠٤ – حقي، إسماعيل إبراهيم، أسواق العرب التجارية، ص٥٤ .

١٠٥ – The periplus of Erythrean sea, ch. 35.

١٠٦ – شاكر خصباك، ابن بطوطةورحلته، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٩٧١، ص١٧٥ .

١٠٧ – الأحمد، الخليج العربي، ص٨٦ .

١٠٨ – النعيم، الوضع الاقتصادي، ص٢٦٣ .

١٠٩ – The periplus of Erythrean sea, ch. 24, 36.

١١٠ – النعيم، المرجع السابق، ص٢٦٤ .

١١١ _ مهيوب غالب أحمد، مدخل إلى دراسة التاريخ السياسي والحضاري ، ص٢٦ .

١١٢ – اليزابيث مونرو، الجزيرة العربية بين البخور والبترول، ترجمة محمود محمود، مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة أكسفورد، مجلة الدارة، العدد الأول، السنة الثانية، دارة الملك عبد العزيز، ١٩٧٦، ص٣٦ .

١١٣ – السيد محمود يوسف، مرجع سابق، ص٢٧ .

١١٤ – المرجع نفسه، ص٢٧ .

١١٥ – تستعمل في طبخ الطعام وتعطيه النكهة والمذاق الجيد، ينظر : السيد محمود يوسف، المرجع السابق، ص٢٨ .

١١٦ – المندلي : ضرب من العود الهندي يتميز بمرارة رائحته ويستعمل في الملابس لقتل القمل ويمنع تكونها في الثياب، وسمي (مندلي) نسبة إلى إقليم (Mandal) الواقع جنوب الهند . ينظر المرجع السابق ، هـ ٣، ص٢٨ .

١١٧ – أنواع من العود الهندي سميت بذلك نسبة إلى إقليم قامرون بشرق الهند . ينظر المرجع السابق، هـ ٤، ص٢٨

١١٨ – (الغار) ضرب من شجر الجبال وقد ينبت في السهل وهو شجر عظيم أوراقه طوال طيب الريح يستعمل في العطر ويتخذ منه دهن الغار ؛ العبادي، اليمن في المصادر القديمة، هـ ٧، ص٢٨-٢٩ .

١١٩ – الرند والتردين : شجر طيب الرائحة ؛ السيد محمود يوسف، المرجع السابق، هـ ٧، ص٢٨-٢٩ .

١٢٠ – المرجع نفسه، ص٢٨-٢٩ .

١٢١ – المرجع نفسه، ص٣٠ .

١٢٢ – The periplus of Erythrean sea, ch. 24, 36.

١٢٣ – السيد محمود يوسف، المرجع السابق، ص٣٠-٣١ .

١٢٤ – المرجع نفسه، ص٣١ .

١٢٥ – المرجع نفسه، ص٣١ .

١٢٦ – النعيم، الوضع الاقتصادي، ص٢٦٤ .

١٢٧ – السيد محمود يوسف، المرجع السابق، ص٣٠ .

١٢٨ – النعيم، المرجع السابق، ص٢٦٥ .

١٢٩ – السيد محمود يوسف، المرجع السابق، ص٢٦٥ .

١٣٠ – المرجع نفسه، هـ ٣، ص٣٢ .

١٣١ – المرجع نفسه ، ص٣٢ .

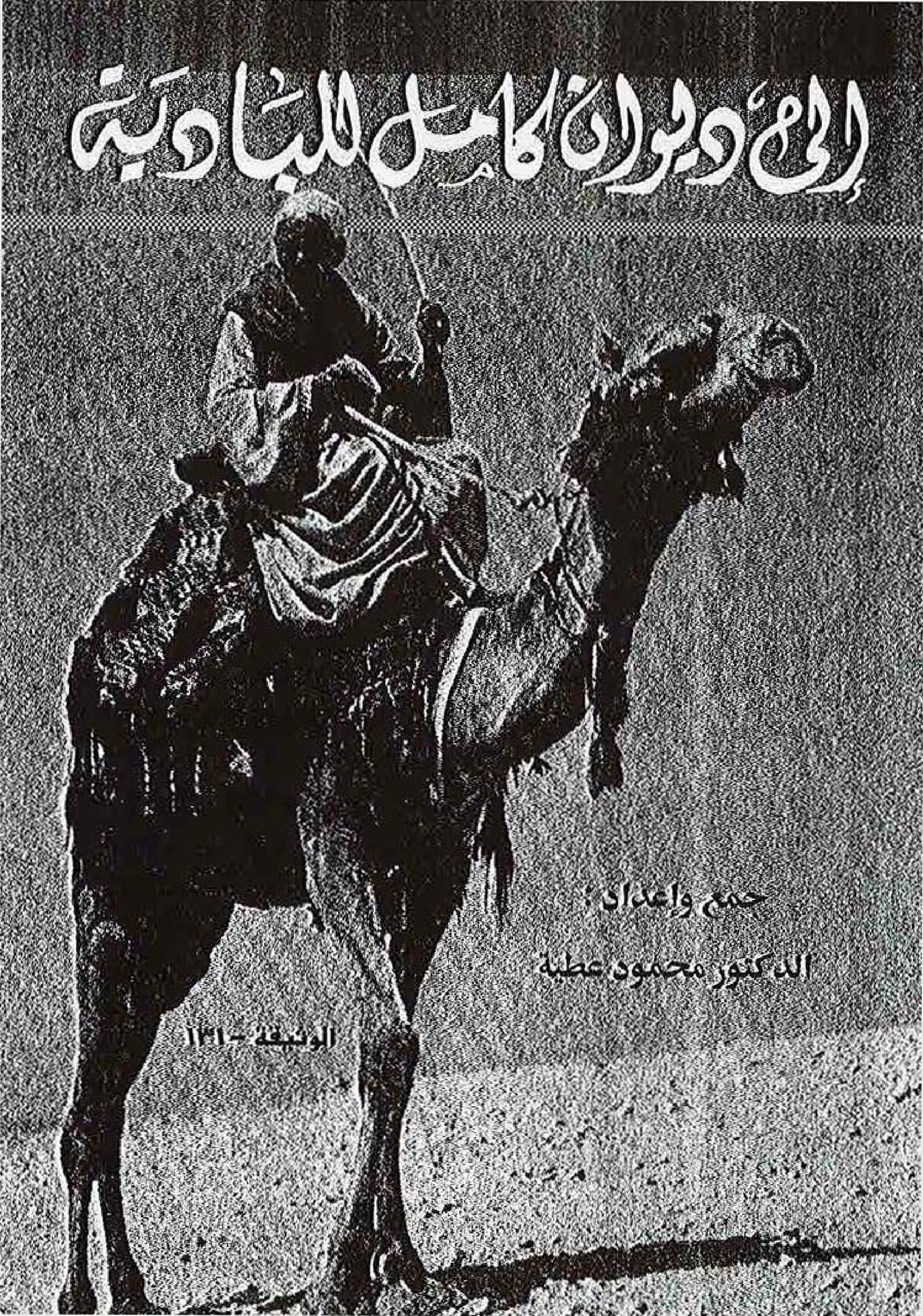
دراسة في شعر النبط

الشعر النبطي تحول من حداء الإبل

أول ما يتبادر للذهن حين نسمع أو نقرأ كلمة "الشعر النبطي" هو البحث ما الشعر النبطي، وما أصل تسميته بالنبطي . .؟

بداية، الشعر النبطي هو لون من الشعر يسمي أحياناً الشعر "النبطي العامي" أو الشعر "النبطي البدوي" . كما أنه أحياناً يطلق عليه " الشعر العامي" لأن لغته قد تخلصت في كثير من الأحيان من بعض الظواهر التي قد تلتزمها اللغة العربية الفصيحة . ويظهر ذلك التخلص خاصة في ضبط أواخر الكلمات . . أي العلامات الإعرابية وضبط الكلمة نفسها أو نطقها بين الترقيق والتفخيم والشدة والإمالة إلى آخر تلك الظواهر فهو شعر عامي أي غير فصيح لكنه شعر عربي . . !




الى ديوان كامل للبادية
جمع وإعداد:
الدكتور محمود عطية
الوثيقة - ١٣١

هل يمكن توظيف الشعر النبطي كأحد مصادر الأبحاث الجغرافية والتاريخية؟

والشعر النبطي يسمى أيضاً "القصيد" وهو الشعر العربي المنظوم بلهجات الجزيرة العربية وما جاورها، خصوصاً في البحرين ودول الخليج العربي . وبين أهل البادية في فلسطين والأردن وسوريا وليبيا وتونس . وعلى الرغم من كونه منظوماً باللهجة المحكية – المتكلم بها – . إلا أنه يكثر في الشعر النبطي الاعتماد على مفردات فصيحة . . ويكون ذلك عادة تلبية لضرورة الوزن (مثل قول "الذي" و"التي" بدلاً من "اللي")، وأحياناً لدعم المعنى . والواقع أن الاختلاف الجوهري بينه وبين الشعر الفصيح يكمن في التخلي عن علامات الإعراب في أواخر الكلمات ونطق بعض الحروف . وليس في التراكيب والصرف والمفردات التي لاتزال تشابه الفصحى إلى حد كبير (أنظر لهجة نجدية) .

وهناك رواية أخرى ترى أن الشعر النبطي أطلق عليه هذا الاسم أي "الشعر النبطي" لأنه "استنبط" بمعنى استحدث . وإذا بحثنا في القاموس نجد استنبط الشيء أي استحدثه أو استمده من مصدر موجود ومصدرها نَبَط بفتح النون والباء وتعني نبع الماء والاستنباط الاستخراج ولكن هذا المستنبط من أين استنبط ؟ بالتأكيد من الشعر العربي الفصيح الذي كان السائد بالأزمنة التي كانت بها اللغة العربية في أوج عظمتها وكانت قبائل العرب كلها مجتمعة في موطنها الأصلي الجزيرة العربية .

ويقال أن حكاية الشعر النبطي جاءت بدايتها حين بدأت هجرة القبائل العربية في القديم لأسباب مختلفة وتحت ظروف خاصة بها . نجد منها على سبيل المثال الغـزو

رأي يقول إن أبا زيد الهلالي هو أول من تغنى بشعر النبط

أو البحث عن المراعي حتى أننا نلحظ من خلال حوادث التاريخ أن كل قبيلة أصبحت تسير بمفردها وتختار لها موقعاً جديداً تقيم به مما أثر على لغتهم العربية بالاستحداث وبنحت أسماء جديدة للبيئة . . !

لهجات جديدة

وبدأت القبائل في استنباط لهجات قريبة من لغتها الأصلية العربية الفصيحة والتي الا تبتعد كثيراً عنها . . ولكنها تدغم بعض الكلمات وتنطق بعض الحروف بنغمة جديدة وتميز مخاطبة المذكر عن المؤنث ببعض الإضافات وبذلك ابتعدت عن القواعد العربية الرصينة . . من هنا كان الشعر العربي المستنبط من الشعر العربي والذي يختلف عنه فقط بعدم تمسك الشعر النبطي بالقواعد النحوية وإضافة بعض المفردات الدخيلة على اللغة العربية من جراء اللهجة العامية كما نلاحظ أن الشعر النبطي لا هو بالشعر العربي الفصيح ولا هو ببعيد عنه . . فيمكن أن يقال أنه مشتق منه ونستطيع القول أنه الشعر العربي نفسه ولكن بدون ظواهر الإعراب . . فلا غضاضة أن تجد الشاعر النبطي ينصب ما يجب أن يرفع ويجزم ما يجب أن ينصب ويضيف التنوين حسب الوزن وهكذا .

والشعر النبطي هو أقرب للنفس البدوية تدون فيه حياتها الخاصة جداً حتى أنه في رسالة جامعية حديثة عن "الحماسة في الشعر النبطي البحريني" نال عنها الشاعر "عبد الرحمن المضحكي" درجة الماجستير قال مؤكداً على أهمية الشعر النبطي : "إذا كان الشعر ديوان العرب فالشعر النبطي ديوان البادية" .

شعر مسموع

وعلى الرغم من أن أصل الشعر النبطي شعر محكي أي مسموع "شفهي" فقد تم طبع عدد من الدواوين لهذا اللون من الشعر في السعودية والخليج في القرن الفائت . . وبالطبع الشعر النبطي بالأساس شعر وصل أكثره إلينا عن طريق الرواية والإلقاء بشكل مشابه للشعر العربي في الجاهليةوصدر الإسلام . . ولايزال الاستماع وليس القراءة هو الطريقة المثلى لتلقي الشعر النبطي لدى المهتمين به .

وحتى أوائل القرن العشرين يكاد يكون الشعر النبطي امتداداً لشعر العرب في الجاهلية وشعر أهل البادية في صدر الإسلام، فيكثر فيه استخدام المقدمات الغزلية التي تؤدي بعد ذلك إلى موضوع القصيدة الرئيسي من فخر أو مدح أو حكمة أو نصح، أو وصف، وبدرجة أقل، الهجاء . ويكون أكثر ما يشابه الشعر القديم حينما يحكي عن مفاخر القبيلة وبطولات فرسانها ووقائعهم .

أما في الوقت الحالي فقد تخلى عن الكثير من المفردات الأكثر صعوبة، محاكياً بذلك التبسيط والتشذيب اللذين لحقا باللهجات البدوية والنجدية عموماً، وأصبح أكثر مشابهة للشعر العامي في البلدان العربية الأخرى . ولأنه هو اللون السائد في الأغاني التجارية في منطقة الخليج العربي، فقد أصبح الغزل يشغل القسم الأكبر من الشعر النبطي في الوقت الحالي، ولكن هذا لا يعني أن الشعر النبطي بصورته التقليدية لم يعد له من ينظم به .

الرواية التقليدية بين رواة الشعر النبطي تقول أن أول من قال الشعر النبطي هو الشخصية شبه الأسطورية أبو زيد الهلالي المفترض وجوده بين القرنين الثاني والرابع الهجريين (الثامن والعاشر الميلاديين)، ولكن ليس لهذه الرواية سند علمي . أما أول ذكر للشعر باللهجة الدارجة فيأتي من الشاعر العراقي الفصيح صفي الدين الحلي في القرن الرابع عشر الهجري والمؤرخ ابن خلدون في القرن الخامس عشر، إلا أنهما لم يذكراه باسم "الشعر النبطي" أما أقدم النماذج الشعرية فمقطوعة من بضعة أبيات لشاعرة من بادية حوران أوردها ابن خلدون في المقدمة، ثم يضع قصائد لأبي الحمزة العامري من

أهل القرنين السابع والثامن الهجريين . وهي في معظمها على اللحن الهلالي (ويقابل بحر الطويل) وبحر الرجز .

وبعد ذلك تأتي قصائد شعراء الدولة الجبرية في شرق الجزيرة العربية ووسطها، ومن هؤلاء جعيثن اليزيدي من أهل الجزعة بوادي حنيفة، الذي عاش في القرن السادس عشر الميلادي، والشاعر عامر السمين . ثم ترد قصائد جبر بن سيار أمير بلدة القصب وابن أخته رميزان بن غشام التميمي أمير روضة سدير، وقصائد أخيه رشيدان بن غشام، وهم جميعا من أعلام القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) . وقد تركوا قصائد ثمينة ليس فقط من الناحية الأدبية واللغوية وإنما أيضاً من الناحية التاريخية لذكرها العديد من الأحداث والوقائع في الفترة التي سبقت ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وآل سعود في نجد . وفي هذه الفترة على الأرجح عاش أحد أشهر الشعراء على الإطلاق راشد الخلاوي، الذي يذهب البعض إلى أنه من أهل القرن العاشر الهجري (الخامس عشر الميلادي)، وآخرون إلى أنه عاش إلى النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري، واشتهر بالقصائد المطولة المعنية بالأنواء وعلم الفلك والحساب والألغاز .

ظهر في القرن التالي (الثاني عشر الهجري) اثنان من أهم أعلام الشعر النبطي وهما حميدان الشويعر في القصب، واشتهر بقصائد النصح والحكمة التي لازالت دارجة إلى اليوم لتقيدها بالأوزان القصيرة، بالإضافة إلى القصائد السياسية وقصائد الهجاء، ومحسن الهزاني في الحريق، الذي اشتهر بالشعر الغزلي وأدخل المحسنات البديعية في الشعر النبطي . ويقال أن للهزاني دور في انتشار القافية المزدوجة . ومن شعراء هذه الحقبة نمر بن عدوان من قبائل البلقاء في الأردن، وتوفي سنة ١٢٣٨هـ (١٨٢٣م) .

ومن أشهر شعراء النبط الآخرين في تلك الفترة محمد بن لعبون الذي سار على منوال الهزاني، بالإضافة إلى تركي بن حميد شيخ قبيلة عتيبة في القرن التاسع عشر، وراكان بن حثلين شيخ قبيلة العجمان، وبديوي الوقداني من نواحي الطائف، ومحمد بن عبد الله القاضي من أهل عنيزة، وعبد الله بن رشيد أمير حائل وأخيه عبيد . وفي هذا القرن تظهر مخطوطات الشعر النبطي كالتي حاز عليها الرحالة الفرنسي شارل هوبير . وقد اتسم هذا القرن بغزارة الإنتاج الشعري وانتشار بحر المسحوب (مستفعلن مستفعلن فاعلاتن)، الذي صار أشهر بحور الشعر النبطي . وفي نهاية هذا القرن وبداية القرن

العشرين ظهر الشاعر محمد العبد الله العوني، ويعده البعض آخر شعراء النبط الكبار، كما ظهر في هذه الفترة الشاعر عبد الله بن سبيل الذي اشتهر بشعر الغزل .

استمر الشعر النبطي في القرن العشرين وبدأت محاولات تدوينه أو تسجيله حفظاً لما تبقى منه من الضياع، وأشهر الدواوين التي ظهرت في هذه الفترة "ديوان النبط" لخالد الفرج (١٣٧١هـ-١٩٥٢م)، الذي جمعه بناءً على توجيه وزير المالية السعودي عبد الله بن سليمان، و"خيار ما يلتقط من شعر النبط" الذي جمعه خالد الحاتم (١٣٧٢هـ) . وظهر في هذه الفترة شعراء مجددون وآخرون حاولوا الالتزام بمنهج الشعراء الأولين في فترة زاد فيها تأثر الشعر النبطي باللهجات الأخرى وتم تبسيطه وفقد كثيراً من جزالته .

لايزال للشعر النبطي شعبية كبيرة في السعودية ودول الخليج العربي، وتوجد عدة مجلات لما يسمى بالشعر الشعبي، كما أقيم في عام ٢٠٠٧م برنامج تليفزيوني للمنافسة بين الشعراء الشباب أطلق عليه شاعر المليون لاقى رواجاً واسعاً في المنطقة وفي الجنوب التونسي تقام التظاهرات والمهرجانات الشعبية للاحتفال بالشعر النبطي أو "شعر القسيم" كما يسمى في البادية التونسية .

أوزان الشعر النبطي

معنى الوزن : وزن الشيء وزناً وزنةً : رجح . .، ووزن الشيء قدر بواسطة الميزان أو دفعه بيده ليعرف ثقله وخفته وجمع الوزن أوزان . يقال وزن الرجل الكلام والشعر : قطعه وميز ثقله وخفته أو نظمه موافقاً للميزان العروض الموزون : شعر موزون جرى على وزن معلوم في الشعر النبطي وكلمة موزون وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة الحجر "والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون" صدق الله العظيم .

والميزان النبطي هو الغناء "الهيجنة" التي توزن بها الأشعار النبطية بإرجاع القصيدة إلى بحرها بالغناء عليه حتى تستطيع الحكم عليه . . والوزن عند العروضيين : ما بنت العرب أشعارها عليه . . وعند شعراء النبط : الغناء الذي يبني عليه الشاعر شعره فالشاعر النبطي مقيد بالوزن والقافية لا يمكنه أن يتصرف كما يريد .

وللشعر النبطي بحوره التي عرف بها ونظم شعراء النبط أشعارهم عليها منذ نشأة هذا الشعر حتى الآن وقد تعارف الشعراء على النظم عليها وأصبحت عرفاً متبعاً تتوارثه الأجيال دون أن تكتب هذه البحور نظراً للبساطة والعفوية التي عرف بها الشعر النبطي . . وبحور الشعر النبطي تقسم إلى قسمين :

بحور أصلية . . وبحور مبتكرة . أما البحور الأصلية فهي :

الهلالي : وهو أقدم البحور وأول ما نظم عليه الشعر النبطي .

الصخري : ولادته مع الهلالي تقريباً .

الحداء : من حداء البدوي للإبل .

المروبع : بحر جديد كان للشاعر النبطي محسن الهزاني دور كبير في إظهاره ويتألف البيت من أربع شطرات ثلاث منها على قافية والرابعة منها قافية مشتركة حتى بقيــة القصيدة وله أوزان مختلفة .

القلطة : وهي النظم الارتجالي .

الرجد : بحر نظم عليه أهل شمال جزيرة العرب أشعارهم .

أما البحور المبتكرة فهي :

المسحوب : مشتق من بحر الهلالي وهو أقصر منه بحرف واحد .

الهجيني : ولد من الحداء حيث أخذ طابع الغناء للإبل والهيجنة على ظهورها وبقيت تسمية الحداء تخص أهازيج الفرسان على ظهور خيولهم للحماس .

السامري : بحر ولد من الهجيني حينما أرادوا أغاني يسمرون بها ويغنون وهم جلوس فلحنوا لذلك بعض الهيجينيات ألحاناً خفيفة تصلح لموضع الجلوس . . وغنوها فكان بحر السامري على هذا النمط حتى ظهرت له قصائده الخاصة .

الفنون : بحر أسسه ابن لعبون كلون يتميز به عن غيره من البحور النبطية وقد اشتقه من السامري حيث يؤدى بنفس الطريقة .

العرضه : اختلفت الآراء في العرضه . . فمنهم من يقول أنها امتداد لاستقبال الرسول ﷺ عند قدومه المدينة المنورة ومنهم من يقول أنه نوع من الحداء مشتقة من هذا البحر تغنى فيها القصائد الحماسية .

الجناس : وهو الابن الشرعي للمروبع ابتدعه أيضاً شاعر النبط محسن الهزاني .

الزهيري : بعد ظهوره شعر شعراء النبط أنهم بحاجة إلى استعراض قوتهم بشكل أوسع فنظموه وأدخلوا عليه الألفاظ النمطية .

نظم أوزان الشعر النبطي

ولتقريب الصورة أكثر نعرض هذه الجملة (ياسامعين الصوت . . صلوا على النبي) بجميع بحور الشعر . .

الهلالي :

ياسامعين الصوت صلوا على النبي . . . صلوا عليـه وسلمـوا تسليم

الصخري : ألا ياسامعين للصوت صلي . . . على محمدن سيد البرايا

الحدا : ياسامعين أصواتنا . . . صلوا معانا عالنبي

المروبع : ياسامعن للصوت صلي وسلم . . على النبي من ُبل تبدأ تكلم

وإن كنت جاهل في حياتك تعلم . . على النبي المحمود أزكى الصلوات

القلطه : ألا ياسامعن للصوت صلي على النبي المختار . . .

محمد صفوة العالم رسول الله حبيب الله

الرجد : صلـوا يا هالمسلميـن . . . على النبي المختـــار

المسحوب :

ياسامعين الصوت ياناس صلوا . . على محمد واكثروا بالسلامي

الهجيني : يا سـامع الصـوت وتصـلـي . . على محمد رسـول الله

السامري : ياسامع الصوت لاتنسى تصلي . . عالنبي عدا ما هل الهلالي

الفنون : سامعن للصوت لا تنسى الصلاة . . عالنبي المصطفى سيد البشر

العرضة : سامع الصوت لبتك تصلي . . عالنبي إعداد وبل السحايب

الجناس : ياسامع للصوت لازم تصلي . . صليت لله وعالنبي دوم صليت

الزهيري :

يامن على المصطفى سمع حديثه وصل . . وغسل ووجه صوب قبله وصل

العبد لامن شكر للخير لامن وصل . . يقرا التشهد قبل لايبدأ التسليم

سلم لرب البشر تفوز بالتسليم . . لأن العمر لا يطل تليته التسليم

والمسعد اللي شكر ربه وشكره وصل

وليس نظم هذه الأبيات النبطية أنها تغني من يحب أن ينظم على منوالها بسهولة . . فهذه هي البحور الرئيسية ويتفرع منها بحور كثيرة وأوزان متعددة تحتاج من صاحب الملكة الشعرية دربةً ومراناً وحفظاً للأشعار النبطية .

أوزان الشعر النبطي . . . البحر الهلالي

ما معنى الهلالي . . . ينحصر المعنى في اللغة في عدة أمور

- الظهور والاستلال للسيف والوضوح واستهلال القصيدة
- البياض والتلألؤ والحسن
- الصوت سواء بالتلبية والذكر أو البكاء للطفل أو صوت الكلب
- الاستقواس : من الهزال أو من صورة الزاي والراء أو الحية حين تتلوى في الاستقواس وقلة لعدم الاكتمال ، ويدخل في ذلك ماء البئر القليل والناقة الهزيلة . يضاف إلى هذا المعنى هلهل النساج الثوب وثوب هلهل .

ويقال أن بحر الهلالي أخذ من هذه المعاني . . فقد ظهر على الوجود بعد خفاء وهو بحر نقي من البحور الصافية في الشعر النبطي يستخدم للتعبير عن البادية التي

يهلل البعير فيها ويستقوس من الهزال . والشعر النبطي بعامة هو ديوان البادية وهو ينسب لبني هلال أصحاب التغريبة فهم أول من ابتكر قول الشعر على هذا البحر . وهذا البحر هو أصل الشعر النبطي في بداية ظهوره حين نقله الرواة . والقصائد التي قيلت على هذا البحر وصلت إلينا عن طريق بني هلال الذين جاهروا بهذا اللون من الفن بعد أن توارى زمناً ليمثل أدب القبيلة على المستوى المحلي . والمعروف الآن لدى شعراء النبط أن أقدم ما وصلنا من الشعر النبطي نظم على هذا البحر فهو يمثل الأصالة بالنسبة للشعر النبطي . ولهذا البحر ميزاته عند الشعراء فهو بحر طويل تستوعب شطراته المعاني التي يريد الشاعر التعبير عنها، وهو يكتب على قافية واحدة في نهاية العجز .

طريقة النظم :

للبحر الهلالي طرق متعددة ينظم عليها ونذكرها هنا بالتفصيل :

النظم على الطريقة القديمة كقول علياء الهلالية :

أبا زيد تنساني وتنسى جمايلي	الله و أكبر يانكور الجمايل
أبا زيد تنسى يوم ترشح لذبلي	كما يرشح العطشان باقي البلايل
أبا زيد لوان النسا تركب النضا	جيتك على عوصا من الهجن حايل

ويقول أبوزيد الهلالي من قصيدة له :

أبا العلا قد بي مع الدرب ناقتي	بحسناك واللا ناد لي من يقودها
يقولون لي عليا نشاشٍ دقاقة	وانا قول رويانٍ من الغي عودها
فقولو لطراد الهوى يطرد الهوى	بالاجهاد عنها لايرده حسودها

شعراء المرحلة التي تلي بني هلال ساروا على نهجهم بطريقة نظمهم ولم يدخلوا على هذا البحر أي تطوير إلا في بعض المعاني والأغراض بتطوير طفيف لا يكاد يذكر إلا أن النظم سار كما هو حتى ظهر راشد الخلاوي الشاعر الفلكي المشهور عند شعراء النبط

فنقل الشعر النبطي نقلة كبيرة وأضاف إلى أغراضه أغراضاً جديدة وهذب طريقة النظم بعض الشيء وحرص على الوزن كقوله في قصيدة من مطولاته :

الكـون مكفـول والأرزاق قسمـة   والرزق مبسـوط ومغنـي وعايـل
وان جاك شكٍ أو نوى القلب ريبة   فاقـرا كتاب الله واحفظ رسـايل
فلا من معنا نال من فـوق حظـه   ولا من محـروم للأرزاء جايـل
فسبحـان من لاقـط ينسى لـذره   كفا ساعي الساعي ومن بالبطايل
فلا دابـة إلا وعلى الله رزقهـا   وترتـاب ياالمخلـوق والله قايـل
ومن كانت الدنيـا من الله حظـه   مغبـون لويعطي مثلها مثايـل
والمـال عـده كالرديف المحـول   والملك من هـذا اللي ذاك زايل

وقد ظهرت القصيدة الهلالية على صورتها الحالية التي هي في عصرنا الحاضر، إلا أن الخلاوي قد كرر القوافي وإن كان تكرار القافية مسموح بالشعر العربي بعد البيت السابع إلا أنه غير مقبول في الشعر النبطي ويعد ظاهرة ضعف بالقصيدة تسجل على الشاعر إلا أن ذلك يغفر للخلاوي نظراً لإطالته بالقصائد والتي قد تصل إلى أكثر من ألف بيت للقصيدة الواحدة .

وجاء من جاء بعد الخلاوي فنظم الشعر الهلالي فأخذ الهلالي نصيب الأسد في اهتمامات شعراء النبط وهذب قوافيه بالمد واستعمال الحروف المتحركة بدلاً من الساكنة في نهاية كل بيت كقول بركات الشريف :

عفا الله عينٍ للإغضـا محاربـة   وجسمٍ دنيفٍ زايد الهم شاعبه
أسهر إليانام المعافـا ومدمعـي   قد هل مابين النظيرين ساكبـه
وقد قلت لما باح صدري ولج بـي   لصديقٍ شفيقٍ صافيات مذاهبـه
دع العذل عني يانصيحي وخلني   شرواك ما يرضا هوانٍ لصاحبه
فـي كل دارٍ للرجـال معيشـةٍ   والارزاق بيد اللي جزالٍ وهايبـه
اخترت بعد الدار في نازح المدا   ولا قولت بركات قد هان جانبه

شهرت عن الزهدا وهي لي فضيه   ولايمنع المخلوق ما لله كاتبــه

ونلاحظ أن الشاعر في البيت الأول من القصيدة ربط شطرتي البيت بقافية واحدة وأهمل قافية الصدر في بقية القصيدة واعتمد قافية العجز فقط وهو ما يسمى بالتصريع وهذا ما سار عليه نظم الهلالي حتى الآن . وبعد أن كانت القافية تقف على حرفين فقط في نهاية آخر كلمة بالعجز اعتمد جل شعراء النبط ثلاثة أحرف في نهاية الكلمة حتى وقتنا الحاضر .

لم يحذ حذو الشاعر بركات الشريف كل الشعراء في عصره فقد استمر بعضهم ينظم الهلالي على نفس الطريقة الهلالية وهي ماتسمى بالطريقة القديمة فاستمر النظم على الطريقة الهلالية يسير في خط متواز مع ما دخل في هذا البحر من تطور أحدثه بعض الشعراء وتبعهم من تبعهم فيه .

مصادر النبطي

في مرحلة انتقال كل أمة من أطوار الثقافة الشفاهية إلى أطوار الثقافة الكتابية يجب الحرص على تدوين ما يمكنها تدوينه من موروثات العصور الشفهية . وقد تبدأ هذه العملية بجمع النصوص العارية من الشروح والحواشي . وكلما تقدم الزمن وارتخت الروابط بين ثقافة الماضي وثقافة الحاضر ازدادت الحاجة لتفسير النصوص والتعليق عليها وتوفير كل ما يمكن توفيره من معلومات تمنح القارئ الخلفية اللغوية والثقافية اللازمة لفهم النصوص وتمثلها واستحضار الأجواء التي كانت تؤدى فيها والوظائف التي كانت تؤديها . وشيئاً فشيئاً ينمو هذا الاهتمام ويترعرع ويصبح عملاً متخصصاً له فروعه المتشعبة وله أطره النظرية وضوابطه المنهجية .

ومع تراكم المادة العلمية على مرور الزمن يصبح حصرها وفرزها وتقييمها والتأريخ لها أمراً ملحاً حتى يمكن السيطرة عليها والاستفادة منها والتعامل معها تعاملاً رشيداً . هنا يقفز مستوى الخطاب من الحديث عن المادة الأدبية الشفهية نفسها إلى الحديث عن ببيليوجرافية المادة، أي الأعمال والجهود العلمية التي بذلت لجمع المادة الأدبية ودراستها . هذا المستوى من الخطاب يعنى بحصر وتقييم الأدوات العلمية التي يتوسل

بها الباحث والمفاتيح التي يحتاج إليها للولوج إلى ميدان الأدب الشفهي وفهم مادته . هذه الأدوات والمفاتيح هي ما نسميه المصادر والمراجع، أو البيبليوجرافيا .

المصادر العربية

كان للمرحوم محمد بن عبد الله بن بلهيد فضل الريادة في التنبيه إلى أهمية الالتفات إلى الشعر النبطي والاستفادة منه في الدراسات التاريخية والجغرافية . يقول الشيخ أبوعبد الرحمن بن عقيل :

وكتاب الشيخ ابن بليهد كتاب رائد إلا أنه كحب الشعير مأكول ومذموم .

ولقد مني بكثير من الجحدان والتنكر من قبل المختصين لا يكادون يذكرونه إلا متعقبين، وما وجدوا له من صالح دفنوا !!

فالفصل الجيد الذي كتبه عن المقارنة بين الشعر العامي والشعر الفصيح تناهبه الدارسون ولم يعزه إليه أحد منهم كابن خميس والزامل والكمالي .

وكلامه عن تموج القبائل في نجد أخذ في وضح النهار ولم يسند إليه كلمة . وأغلب أصحاب المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية لا يذكرونه إلا متعقبين، ولم يتركوا الرجل وشواهده من الشعر العامي بل أغاروا عليها .

والفصل الذي كتبه الشيخ في المجاز عن تموج القبائل إنما هو تلخيص جيد لما كتبه ابن بليهد . (ابن عقيل ١٩٨٦م، ج ٣، ص١٣٧-١٣٨ .

وكان ابن بليهد أول من تنبه إلى توظيف الشعر النبطي كأحد المصادر المهمة في الأبحاث التاريخية والجغرافية المتعلقة بجزيرة العرب وتقفى أثره في ذلك الشيخ عبد الله بن خميس والشيخ محمد العبودي والشيخ سعد بن جنيدل في الأجزاء التي ألفوها من المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية والذي نشرته دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر . والشيخ ابن بليهد أول من عقد مقارنة بين الشعر النبطي والشعر العربي

استغرقت اثنتين وعشرين صفحة بين فيها أوجه الشبه والارتباط بينهما . (١٣٩٢هـ، ج٢، ص١٨٩-٢١٠) .

ومن أمتع ما كتبه ابن بليهد وأعظمه فائدة ما ذكره عن مناخات عتيبة ومطير وقحطان في أوائل القرن الرابع عشر الهجري وعن عادات العرب وقوانينهم في السلم والحرب وعن تموجات القبائل في نجد منذ أواخر القرن التاسع الهجري . (١٣٩٢هـ، ج٢، ص١١١-١٣٢) . وقد عول الكثير من الرواة والمؤرخين فيما بعد على النصوص والشذرات التي أوردها ابن بليهد .

وتزامن مع ظهور الطبعة الأولى من صحيح الأخبار ظهور الديوان الذي جمعه خالد الفرج ونشره تحت عنوان "ديوان النبط : مجموعة من الشعر العامي في نجد" . ويعد هذا الديوان مثالاً نموذجياً في جودة التصنيف والتبويب والشرح والتعليق وحسن الاختيار، وإن كان يغفل ذكر المناسبات التي قيلت فيها القصائد . أما مقدمة الديوان فإنها علامة بارزة على طريق البحث والتحقيق في مجال الشعر النبطي وإضافة حقيقية إلى ما جاء به ابن بليهد . وتتضمن هذه المقدمة الوافية عدداً من الآراء التي تلقفها المتاخرون فاقتبسوها ونموها وإن كان البعض منهم لم يكلف نفسه عناء الاعتراف بفضل الفرج وسبقه . أما مجموعة عبد الله بن خالد الحاتم "خيار ما يلتقط من الشعر النبط" فإنها تتميز باحتوائها على بعض النماذج من الشعر النبطي القديم . ومن المجاميع التي تجدر الإشارة إليها لاحتوائها على قصائد ترجع إلى العصور الفائتة مجموعة عبد الله اللويحان "روائع من الشعر النبطي" ومجموعة مسعود بن سند بن سيحان الرشيدي "التحفة الرشيدية في الأشعار النبطية" .

أما في مجال الدراسات المتخصصة فإن كتاب الشيخ عبد الله بن خميس "الأدب الشعبي في جزيرة العرب" يظل مدخلاً جيداً وعملاً متميزا في هذا المضمار لا غنى للباحث الجاد عنه . ولابن خميس أعمال أخرى جليلة بذل فيها جهداً مشكوراً في تدوين وتوثيق قصائد من الشعر النبطي مثل كتابه عن "الخلاوي" وكتابه عن "أشعار العرضه" وكتابه "أحاديث السمر" . أما كتاب شفيق الكمالي "الشعر عند البدو" فإنه يتضمن فوائد جمة وإضاءات لم يُسبق إليها ويعتبر رافداً جيداً ومتمماً لكتاب ابن خميس "الأدب الشعبي في جزيرة العرب" . ومن الدراسات الشمولية المستفيضة عن الشعر النبطي، وخصوصاً في

دولة الإمارات العربية ومنطقة الخليج، الدراسة التي تقدم بها الدكتور غسان حسن أحمد الحسن لنيل درجة الدكتوراة تحت عنوان "الشعر النبطي في منطقة الخليج والجزيرة العربية"، ثم قام المجمع الثقافي في دولة الإمارات العربية بطباعة الدراسة في كتاب يتألف من جزأين كبيرين . وتتطرق هذه الدراسة بالوصف والتحليل وبشكل مفصل وموثق إلى العديد من قضايا الشكل والمضمون في الشعر النبطي . هذا وقد صدر لنا عن دار الساقي بلندن كتاب يربو على ٦٠٠ صفحة بعنوان "الشعر النبطي : ذائقة الشعب وسلطة النص" يتناول بدايات الشعر النبطي وجذوره الفصيحة ويحتوي على كم ضخم من القصائد النبطية القديمة التي لم يسبق نشرها .

وقد صدرت للشيخ أبو عبد الرحمن بن عقيل سلسلة تاريخ نجد في عصور العامية "ديوان الشعر العامي بلهجة أهل نجد" من خمسة أجزاء وتتجلى فيها قدرة ابن عقيل وجلده على البحث والتقصي . كما يعول ابن عقيل كثيراً على الشعر النبطي في سلسلة دراسات ونصوص عن البيوتات العربية الحديثة والتي تقع في أربعة أجزاء . وساهم ابن عقيل في إعداد كتاب قيم عن أشعار الدواسر يحتوي على أشعار تاريخية وكتب له مقدمة عظيمة الفائدة، والكتاب من جمع محبوب بن سعد بن مدوي الفصام الدوسري . وأعمال ابن عقيل هي البداية الحقيقية للبحث العلمي المنظم والجاد في قضايا الشعر النبطي . ومن المحققين البارزين الذين يعتمد عليهم، وخصوصاً بالنسبة لشعراء عالية نجد، الشيخ سعد بن جنيدل وله عدة مؤلفات قيمة في هذا الموضوع . وله بالإضافة إلى الكتب المطبوعة تحقيقات ومشاركات إعلامية بارزة . وتعد مؤلفات الشيخ سعد من المصادر الأولية في مجال الدراسات الشعبية بشكل عام .

ومن الدراسات العلمية الرصينة كتاب الدكتور عبد الله العتيبي "دراسات في الشعر الشعبي الكويتي" . والكتاب عبارة عن مقالات في موضوع الشعر الشعبي كتبها الدكتور العتيبي في فترات متفاوتة ونشرها في أماكن متفرقة ثم جمعها فيما بعد ونشرها في هذا الكتاب . ولا يفوتني أن أنوه بكتاب الدكتور عبد الله الفوزان عن حميدان الشويعر، وكذلك كتاب الأستاذ محمد بن عبد الله الحمدان عن حميدان الشويعر أيضاً .

ومن المجاميع المثالية في جودة الاختيار وجودة الطباعة والإفاضة في الشرح الجزء الأول من مجموعة شاعرات من البادية الذي أعده عبد الله بن رداس . ومما يضيف إلى

أهمية هذا الديوان المقدمة الممتعة التي كتبها الشيخ حمد الجاسر يرد فيها على منير العجلاني ويبين أهمية دراسة الشعر النبطي كمصدر تاريخي وجغرافي . وفي الدواوين التي نشرها منديل الفهيد في سلسلته "من آدابنا الشعبية في الجزيرة العربية" يجد القارئ نماذج جيدة من أشعار شيوخ البادية وفرسانهم . ولمنديل باع طولي في الرواية وجهود مشكورة في التدوين والتوثيق غير أنه يعمد أحياناً إلى تعديل صياغة بعض القصائد التي تحتوي على معان لاتتلاءم مع الوضع السائد . ومما يؤخذ على منديل أيضاً عدم عنايته بدواوينه من حيث الطباعة والإخراج وهي عارية من الشروح والتعليقات ولا يكاد القارئ يفقه شيئاً من المقدمات الركيكة التي يضعها منديل لقصائده . وربما شارك ابن عقيل منديلاً اللوم في ذلك حيث تقع على عاتقه مسئولية الإشراف والإعداد لبعض هذه المجموعات .

أما كتاب "أبطال من الصحراء" للمرحوم محمد أحمد السديري فإنه لا يجارى في الجودة والإتقان، لا من حيث الطباعة والإخراج ولا من حيث ما يحتويه من قصص وأشعار مليئة بمعاني الفروسية ومواقف البطولة والرجولة . وكتاب "قصة وأبيات" الذي أعده إبراهيم اليوسف يحظى بأهمية خاصة نظراً لطبيعة المادة التي يتضمنها ولأن الدكتور عبد العزيز الخويطر كتب له مقدمة ضافية هي عبارة عن دراسة نقدية فنية تبين مواطن جماليات الشعر النبطي . وكتب الخويطر مقدمة مماثلة لديوان شعراء عنيزة الشعبيين الذي أعده عبد الرحمن العقيل وسليمان الهطلاني . وهاتان المقدمتان من أجمل ما كتب عن الشعر النبطي من الناحية الأدبية .

ومن المساهمات التي تستحق الإشادة مجموعة فهد الرشيد "شعراء الرس النبطيون" التي تحتوي على مجموعة لا بأس بها من أشعار أهل الرس . ونشر الشاعر سليمان بن محمد النقيدان ديواناً يحمل عنوان "من شعراء بريدة" بالإضافة إلى الأشعار أخباراً عن بعض شعراء بريدة مثل محمد العلي العرفج والعوني لم تنشر من قبل . كما أصدر حمود النافع مجموعة ضخمة تقع في عدة أجزاء من شعر شعراء الزلفي . وظهرت أخيراً سلسلة بعنوان "الشعر النبطي في وادي الفقي" أعدها أحمد بن عبد الله الدامغ وتتضمن أشعارا لشعراء من روضة سدير . كما أعد سعود بن عبد الرحمن اليوسف كتابا عن شعراء أشيقر سماه "أشيقر والشعر العامي" . ويحمل ديوان أشعار قديمة تنشر لأول مرة الذي أصدره

فايز موسى الحربي عدداً من القصائد التي لم يسبق نشرها . ومن دواوين القبائل ديوان صور وأشعار بني رشيد جمعه ناصر بن عياضة بن عجوين الرشيدي ويحتوي على العديد من القصص والقصائد الجيدة والشيقة . ويجد القارئ مزيدا من أشعار وسوالف بني رشيد في الدواوين التي أعدها كل من نجا مفلح بنيان الرشيدي وحباب الرشيدي . كما نشر محمد بن دخيل العصيمي ديواناً ضخماً يقع في جزأين جمع فيه ما استطاع جمعه من أشعار عتيبة المتفرقة في ثنايا المصادر المنشورة . ومن له اهتمام خاص بتاريخ قبيلة عنزة وأخبارها وأنسابها وأدبها وأشهر مشايخها وفرسانها وشعرائها سوف يجد بغيته في مؤلفات عبد الله بن عبار العنزي . وممن لهم إسهامات ملحوظة في مجال المأثورات الشعبية وتحقيق نصوص الشعر الشعبي ودراستها عبد الرحمن بن زيد السويداء، وخصوصاً سلسلته من "شعراء الجبل العاميين" التي تتألف من ثلاثة أجزاء . تحتوي أجزاء هذه السلسلة على أشعار من منطقة حائل من أهمهم خلف أبو زويد وشايع بن مرداس المالي وعدوان الهربيد . وتتميز أعمال السويداء بجودة الاختيار والشروح الوافية . وللأستاذ أحمد فهد العلي العريفي مجموعة من المصنفات المفيدة مثل كتابه عن "رميزان بن غشام" وكتابه عن "متشابه القصائد ومعجم الشعراء" . وفي كتابه بركات الشريف استطاع العريفي عن طريق البحث والتقصي جلاء الغموض التاريخي الذي كان يحيط بشخصية هذا الأمير الذي يحتل مكانة بارزة بين شعراء النبط .

أما من تروق له المقطوعات الغنائية فسوف يستمتع بقراءة المجموعات التي أعدها محمد الثميري وعبد الله الدويش ومحمد الحمدان . ومن الألوان المتميزة في الشعر النبطي ما يسمى شعر المحاورة أو شعر الرد أو القلطة . وهناك عدد من الدواوين التي تحتوي على نماذج جيدة من شعر الألطة مثل ديوان علي أبو ماجد وديوان أحمد الناصر الشايع وديوان مطلق بن حميد الثبيتي وديوان علي القري . وقد أعد مبارك عمران السبيعي ديواناً من جزأين ضمنه عينات مختارة من شعر القلطة .

ويبقى هناك العديد من الدواوين التي تحتوي على قصص وقصائد نبطية جيدة لكنها تعاني من سوء الطباعة وقلة العناية وعدم الدقة في الرواية مع التحيز الواضح لقبيلة جامع الديوان . نذكر على سبيل المثال المجموعات التي نشرها شاهر بن محسن الأصقة وفهد الفردوس والأسمر الجويعان وابن عبار وغيرهم ممن سيرد ذكرهم في القائمة

البيبليوجرافية مثل مطلق بن محمد البادي البراق العتيبي ومزيد السريحي وصالح بن رباح المطلق وبجاد لهاب الجش ومحمد العزب ومشعل الجبوري وعبد العزيز بن سعد المطيري . هذا ولن نتطرق لدواوين الشعراء المعاصرين لأنها خارج نطاق البحث ولأنها أكثر من أن نحيط بها .

ومصادر دراسة الشعر النبطي لا تقتصر فقط على الدواوين الشعرية أو الكتب والدراسات التي كتبت تحديداً عن قضايا الشعر النبطي . بل إن طبيعة الشعر النبطي ومضامينه وأغراضه ووظائفه الاجتماعية والسياسية تتطلب من الباحث الرجوع إلى مصادر تاريخية وجغرافية وإلى كتب اللغة والألفاظ العامية وكل ما كتب عن الأدب الشعبي بجميع أجناسه وعن الثقافة الشعبية والحياة التقليدية وحياة البادية في العصور الفائتة وفي مختلف مناطق الجزيرة العربية . وتشكل هذه المصادر على اختلافها أدوات بحثية ضرورية تساعد الباحث على التعمق في إدراك مضامين القصيدة النبطية وتفسيرها وتحليلها . وهناك مصادر هي بمثابة نوافذ يطل منها الباحث على الماضي ليستجلي صوره ويتمثله تمثلاً صادقاً يعينه على فهم الشعر النبطي الذي يستمد صوره وأخيلته من ذلك الواقع الذي ذهب مع الريح . والشعر النبطي رصد لواقع الحياة في الماضي بجميع تجلياتها ومختلف مظاهرها، وكلما تمعنا في تلك الحياة الدارسة وأحطنا علماً بجوانبها تعمق فهمنا للشعر النبطي . فأنت مثلاً حينما تقرأ أبياتاً غزلية فلربما تصادف مسميات لأنواع من الحلي والأزياء وأدوات الزينة التي كانت تستخدمها النساء في الماضي لكنها انقرضت وقل من يعرف عنها شيئاً في وقتنا هذا .

وفي استطرادات التوجد والحنين تصادف مفردات تتعلق بالسانية وأدواتها أو وسائل الغوص في البحر أو غيرها من الممارسات التي لم تعد موجودة الآن . والشاعر حينما يقطع الفلوات والبراري على راحلته أو يبعث مندوباً ليبلغ رسالته إلى الشخص المعني ترد في هذه الرحلة أسماء موارد ومواقع قل من يعرفها من غير المختصين . ومن هنا فإن الباحث والناقد يلزمه توسيع مداركه وتعميق ثقافته والاطلاع على كل ما له صلة بحياة الأسلاف في كل منحى من مناحيها بحيث لا تفوته شاردة ولا واردة .

من المصادر اللغوية المفيدة في فهم معاني ألفاظ الشعر النبطي كتاب "السويداء فصيح العامي في شمال نجد" وكتاب الدكتور عبد العزيز بن محمد الفيصل "من غريب الألفاظ

المستعملة في قلب جزيرة العرب" وكتاب عبد الكريم الحقيل "ألفاظ دارجة ومدلولاتها في الجزيرة العربية" . ولا يفوتني أن أنبه هنا إلى أن الباحث سوف يفيد فائدة عظيمة بالرجوع إلى أمهات المعاجم العربية مثل "الصحاح" للجوهري و "لسان العرب المحيط" لابن منظور و "تاج العروس" للزبيدي و "المخصص والمحكم والمحيط الأعظم" لابن سيده وذلك لأن مفردات الشعر النبطي في غالبيتها مفردات عربية فصيحة صحيحة . كما أن فهم الشعر الجاهلي وتذوقه واستشفاف معانيه وصوره والانكباب على ما كتب فيه من دراسات نقدية وأبحاث لغوية يساعد كثيراً على فهم الشعر النبطي والتبحر فيه، والعكس صحيح أيضاً .

ومن المصادر التي لا غنى للباحث عنها كتاب السويداء "نجد في الأمس القريب" وأعماله الأخرى، وكتاب القويعي "تراث الأجداد"، وكتاب "الساني والسانية" لابن جنيدل، وكذلك الكتيبات التي تصدر عن مهرجان الجنادرية السنوي عن الحلي والأزياء الشعبية وغير ذلك من مظاهر الحياة التقليدية . وسوف يجد القارئ شذرات وإضاءات ممتعة عن حياة الأسلاف في سلسلة "أيْ بُنَي" "مقارنة بين ماضينا وحاضرنا" التي أصدرها الكتور عبد العزيز الخويطر في عدة أجزاء . كما صدر مؤخراً عن دار الدائرة للنشر والتوثيق عمل موسوعي من اثني عشر مجلداً ضخماً عنوانه "الثقافة التقليدية في المملكة العربية السعودية" يتناول مختلف جوانب الحياة التقليدية في المملكة .

ونظراً لارتباط الشعر النبطي بالتاريخ السياسي بوجه عام والتاريخ القبلي والإقليمي بوجه خاص فإنه لامندوحة للباحث من الإلمام بالمصادر التي تتناول هذه المواضيع مثل "تاريخ ابن غنام" و "تاريخ ابن بشر" و"تحفة المستفيد بتاريخ الاحساء في القديم والجديد" لمحمد بن عبد الله بن عبد المحسن آل عبد القادر . ويحتوي كتاب خير الدين الزركلي "شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز" على بعض المعلومات القيمة عن فرسان بعض القبائل ومشايخها وعاداتها . ومن المصادر التاريخية المهمة "علماء نجد خلال ستة قرون" الذي ألفه الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح البسام . كما قام الشيخ البسام بجمع المخطوطات التاريخية المهمة المتعلقة بنجد وأصدرها في عشرة مجلدات تحت عنوان "خزانة التواريخ النجدية" .

وبينما يتحفظ الكثيرون من مؤرخي نجد التقليديين على توظيف الشعر النبطي كمادة تاريخية نلاحظ أن مؤرخي القصيم لا يترددون في ذلك مثل ابن بسام في مخطوطه "تحفة المشتاق" ومقبل الذكير في مخطوطه "مطالع السعود" . ومن المتأخرين هناك الدكتور محمد بن عبد الله بن سليمان السلمان في كتابه "الأحوال السياسية في القصيم في عهد الدولة السعودية الثانية" والدكتور عبد الله العثيمين في كتابه "نشأة إمـارة آل رشيد" . وللأخير مقالة قيمة نشرها في مجلة العرب بعنوان "الشعر النبطي كمصدر لتاريخ نجد" . ومن المصادر التاريخية المهمة التي هي أقرب إلى مفهوم التاريخ الشعبي الشفهي مخطوطة عن "حروب القصيم" للشاعر إبراهيم القاضي، ابن الشاعر المشهور محمد العبد الله القاضي، ومخطوطة عن تاريخ نجد عنوانها "النجم اللامع للنوادر جامع" أملاها محمد العلي العبيد من أهالي عنيزة . هاتان المخطوطتان تنحيان في السرد التاريخي منحىً شفهياً قريباً من أسلوب السوالف بما يتخللها من قصائد ترد كشواهد تاريخية وكجزء متمم للسرد النثري الذي هو أشبه ما يكون بتفسير للأبيات الشعرية ومقدمة للقصائد تعطي المستمع الخلفية اللازمة لفهم الأبيات وتفصل الأحداث الباعثة لهـا أو المترتبة عليها . ويحتوي تاريخ العبيد على تفاصيل إثنوجرافية عن حياة البادية وعن أنساب القبائل وحروبها . ومثل هذا، النبذة التي أملاها ضاري بن فهيد الرشيد على وديع البستاني حينما كان يرقد مريضاً في أحد مستشفيات الهند ونشرتها دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر تحت عنوان "نبذة تاريخية عن نجد" أملاها الأمير ضاري بن فهيد الرشيد . ويتضمن كتاب ابن بليهد "صحيح الأخبار" على نبذ في غاية الطرافة والأهمية عن الأوضاع القبلية في نجد قبل قيـام الدولة السعودية الحديثة .

أما فيما يتعلق بالتاريخ القبلي والأنساب فهناك كتابات الشيخ حمد الجاسر مثل معجم قبائل المملكة العربية السعودية ومثل جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد .

وهناك كتاب "المنتخب في ذكر أنساب قبائل العرب" لعبد الرحمن بن حمد بن زيد المغيري وكتابات عاتق البلادي مثل "نسب حرب" ومثل "معجم قبائل الحجاز" . هذا بالإضافة إلى العديد من الكتب التي تتفاوت في جودتها وموضوعيتها ودقة معلوماتها مثل ما كتبه ابن عبار العنزي عن "أنساب عنزة" وكتاب "كنز الأنساب ومجمع الآداب" لحمد الحقيل وكتاب الدكتور علي شواخ إسحق الشعيبي "القشعم من كبريات القبائل

العربية" دراسة تاريخية اجتماعية أدبية وكتاب عبد الكريم بن عبد الله المنيف الوهبي "بنو خالد وعلاقتهم بنجد" وكتاب فهد المحمد الربيعان "العرينات" وكتاب حمد الناصر آل وهيب "معجم أسر بني تميم في الحديث والقديم" وكتاب عبد الله بن علي بن صقية "بنو تميم في بلاد الجبلين" . وهناك كتيب صغير في حجمه عظيم في فائدته ويحتوي على عدد من القصائد النبطية الجيدة أصدره عبد الرحمن العبد الكريم العبيد بعنوان "قبيلة العوازم : دراسة عن أصلها ومجتمعها وديارها" . ولا يفوتنا أن نذكر القارئ بسلسلة ابن عقيل "دراسات ونصوص عن البيوتات العربية الحديثة" والتي مر ذكرها . ومن المصادر المفيدة فيما يتعلق بقبائل عنزة وشمر وقبائل شمال الجزيرة عموماً كتاب عباس العزاوي "عشائر العراق" وكتاب أحمد وصفي زكريا "عشائر الشام" . أما فيما يتعلق بالجانب الجغرافي فلن يجد الباحث خيراً من "صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار" للشيخ ابن بليهد وسلسلة "المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية" التي تصدر عن دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر . ومن الكتب التي تهمنا بوجه خاص في هذه السلسلة كتاب العبودي عن "القصيم" وابن جنيدل عن "عالية نجد" وابن خميس عن "اليمامة" . ولابن خميس مؤلفات أخرى عن "أودية الجزيرة وجبالها" وعن "اليمامة" سنثبتها في قائمة المصادر . ولابن جنيدل كتاب عن "الجوف" فيه استشهادات من الأدب الشعبي والشعر النبطي . وهناك سلسلة "هذه بلادنا" التي تصدر عن الرئاسة العامة لرعاية الشباب، بالإضافة إلى كتب أخرى تخص بعض البلدان مثل كتاب ابن خميس عن "الدرعية" والدكتور محمد بن سعد الشويعر عن "شقراء" وغيرها كثير مما لايخلو من بعض الفائدة، وإن كانت بعض هذه الكتب تتسم بالاختصار الشديد والضحالة، بل والإسفاف أحياناً .

ولا تخلو كتب الرحلات من الفائدة وخصوصاً في تعريف بعض المواقع والموارد وتحركات القبائل وتفرعاتها وديارها وعاداتها مثل "مرآة جزيرة العرب" لأيوب صبري باشا و"الرحلة الحجازية" لمحمد لبيب البتنوني وكتابات إبراهيم المسلم وعبد العزيز عبد الغني إبراهيم عن العقيلات .

والباحث المتعمق في قضايا الشعر النبطي لابد وأن يقوده البحث إلى جوانب أخرى من جوانب أدبنا الشعبي على اختلاف أجناسه وكذلك الأدب الشعبي في مختلف مناطق

المملكة . ويمكننا أن نشير في هذا الصدد إلى الأعمال القيمة التي أتحفنا بها الأساتذة الأفاضل عبد الكريم الجهيمان ومحمد بن ناصر العبودي وفهد المارك ومحمد بن أحمد العقيلي وعاتق بن غيث البلادي وغيرهم ممن سوف يرد ذكرهم في قائمة المصادر .

ونظراً لتموجات القبائل وحركات الهجرة السكانية والتمازج الاجتماعي وعمليات التبادل الثقافي المكثفة بين وسط الجزيرة والمناطق المحيطة بها شرقاً وشمالاً، فإن هناك إصدارات تتناول الأدب الشعبي والثقافة التقليدية في بلدان الخليج العربي والعراق والشام يمكن أن يستفيد منها الباحث في قضايا الشعر النبطي . ويستحيل حصر مثل هذه الأعمال هنا لكنني أذكر من ضمن الكتب كتاب عبد الرحمن الحوراني "التراث الشعبي في حوران" وكتاب روكس بن زائد العزيزي "قاموس العادات واللهجات والأوابد الأردنية" وكتب أحمد عويدي العبادي عن القضاء البدوي . ولا يفوتني أن أشيد بكتابات الأستاذ سيف مرزوق الشملان من الكويت وخصوصاً ما يتعلق بموضوع الغوص وكذلك كتابات أيوب حسين الأيوب وخصوصاً كتابه "مختارات شعبية من اللهجة الكويتية" .

ومن الكتب المتميزة والتي بذل فيها جهد واضح كتاب ناصر حسين العبودي "الأزياء الشعبية الرجالية في دولة الإمارات وسلطنة عمان" وكتاب نجلة العزي "كنوز متحف قطر الوطني" وخصوصاً الجزء الثاني الذي يتحدث عن الحلي الذهبية والفضية . وصدرت عن مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية في الدوحة العديد من الأعمال التي يمكن أن يفيد منها الباحث، وأخص بالذكر مجلة المأثورات الشعبية . وبالإضافة إلى هذه المجلة هناك مجلات أخرى سوف يعثر فيها الباحث على مقالات تفيده في مجال الأدب الشعبي والثقافة التقليدية مثل مجلة "لغة العرب" ومجلة "التراث الشعبي" العراقيتين ومجلة "العرب" التي يصدرها الشيخ حمد الجاسر .

المصادر الأجنبية

وعن جهود المستشرقين في مجال جمع الشعر النبطي ودراسته،وهذا مصدر لا يستهان به كماً وكيفاً . وأعمال المستشرقين في هذا الميدان يمتزج فيها الجمع والشرح مع الدراسات الأدبية واللغوية التي تشكل بدورها فرعاً من الدراسات الإثنولوجية بمفهومها

الأعم . هذا يتطلب منا قدراً من التوسع والانفتاح في بحثنا عن المصادر بحيث لا نقتصر على تلك التي تعنى بتدوين نصوص الشعر فقط بل علينا أن ننتقي كل ما يتعلق بلهجات الجزيرة وحياة البادية وكتب الرحلات . مثل هذه المصادر وإن كان أصحابها قد قصدوا منها أساساً أن تكون أبحاثاً في علم اللهجات العربية أو في اللغات السامية أو في الاستكشافات الجغرافية وهلم جراً . . إلا أنها لاتخلو أحياناً من بعض القصائد والأبيات النبطية و "السوالف" التي ترد كشواهد أو كمادة خام . هذا بالإضافة إلى أن مثل هذه المصادر في مجملها وعلى عمومها تشكل أدوات البحث الأساسية التي لا غنى للباحث الجاد عنها . والحقيقة أن المستشرقين لهم إسهامات سباقة وجهود لا يستهان بها فيما يتعلق بدراسة الشعر النبطي ولهجات الجزيرة العربية، وخصوصاً بين أبناء البادية وفي شمال الجزيرة تحديداً . وحيث أن معظم هذه المصادر الأجنبية، وخصوصاً القديم منها وما هو مكتوب بلغات أجنبية غير الإنجليزية، غير متاحة للكثيرين من المهتمين بالشعر النبطي في بلادنا فإننا سوف نتوسع بعض الشيء في الحديث عما تتضمنه من نصوص وآراء .

أول من قام من المستشرقين بتدوين ودراسة نماذج من الشعر النبطي هو جورج أوجست والن Georg August Wallin الذي جمع بعض القصائد أثناء إقامته في منطقة الجوف عام ١٨٤٥م وهو في طريقه إلى حائل مروراً بجبه . ولد والن سنة ١٨١١م في وطنه فنلندا التي كانت آنذاك تحت سيطرة روسيا . وحيث أنه لم يكن يوجد بعد في فنلندا لغة وطنية نشأ والن كغيره من سكان مقاطعته يتكلم اللغة السويدية . وأبدى اهتماماً مبكراً ببلاد الشرق وشغفاً بالصحراء وحياة البادية . وحصل على شيء من الدعم من جمعية الجغرافيين الملكية الروسية التي تأسست عام ١٩٤٥م في سانت بيترسبرج St. Petersburg ومن جمعية الجغرافيين الملكية في لندن . يعرّف نجيب العفيفي والين في الجزء الثالث من كتابه "المستشرقون" قائلاً :

ولد في جزائر آلاند غربي فنلندا، وتعلم في كليتها وصنف كتاباً باللاتينية أسماه "أهم الفروق بين لهجات العرب المتأخرين والمتقدمين" . وفي سنة ١٨٤١م قصد روسيا، وتضلع في العربية على الشيخ محمد عياد الطنطاوي في مدرسة الألسن، حتى آخر سنة ١٨٤٢م، ثم رحل إلى الشرق فطوف خلال ست سنوات بمصر وجزيرة العرب وبغداد

وأصبهان وبصرى ودمشق متزيياً بزي البدو متطبعاً بطباعهم باسم عبد الولي — وقد نقشه على حجر قبره بحروف عربية — حاملاً حقيبة مملوءة بالعقاقير، فأحبته القبائل، ويسرت له دراسة عاداتها ولهجاتها، واستقصاء حالة بلادها الطبيعية والجغرافية، ثم سكن لندن (١٨٤٩–١٨٥٠)، واشترك في إعداد خريطة لبلاد العرب، وعين أستاذاً، فكان أول من استقل بكرسي لها فيها، ثم سمي أستاذاً للعربية في كلية هلسنكي، وأقبل عليه الطلاب، وأفادوا منه حتى وفاته .

نشرت دار Falcon-Oleander كتيباً صغيراً عنوانه Travels in Arabia (١٨٤٥–١٨٤٨م) يتضمن التقارير التي سبق أن نشرها والين عن رحلاته مع مقدمة كتبها M. Trauts & W.R. Mead تحتوي على بعض المعلومات البيوجرافية عن حياة والين . جاء في هذه المقدمة أن والن كتب في يناير ١٨٥١م بعد عودته من الجزيرة العربية حينما داهمه برد الشتاء القاسي في وطنه فنلندا يعبر عن حنينه إلى الصحراء : "كم أتوق الآن أكثر من أي وقت مضى أن أستبدل مناخ وطني الثقيل الوطأة والحياة المرهقة التي أنا مجبر عليها هنا (كأستاذ للعربية يدرس الطلاب مبادئ الهجاء) . . . طموحي في هذه الحياة أن أتمكن من العودة إلى الشرق وبالتحديد إلى الصحراء العربية .

يمكنني العودة هناك كرحالة أوروبي لأستكشف علمياً المناطق المجهولة في بلاد العرب وأقدم نتائج أبحاثي للدوائر الأكاديمية في العالم الغربي، وأخص بذلك الجمعيات العلمية في لندن . أو ربما أذهب إلى هناك للاستجمام والترويح عن النفس، للبحث عن ملاذ في فيافي الصحراء من بيئة أوروبا الخانقة، لأجد السلام وراحة البال بعيداً عن التفاهات والزيف والعجرفة التي اعتادها الغربيون، لأعيش بدوياً حراً ثم أموت وأدفن بين أبناء البادية الأحرار" . وفي رسالة أخرى وضح والين أهدافه والتي كان من ضمنها توثيق ودراسة الآداب والأعراف البدوية التي كان يرى أنها "مازالت تحكم حياة هؤلاء الباترياركيين patriarchal والتي لا تقل بأي حال في أهميتها وأصالتها عن القوانين التي كان يحتكم إليها قدماء الغاليين Gauls، بل حتى تلك التي سادت بين أجدادنا القوطيين Goths" . وفي ميله للغات الدارجة والآداب الشفهية كان والين متأثراً أيما تأثر بجهود زملائه من الأكاديميين والكتاب الفنلنديين الذين شمروا عن سواعدهم وجابوا أرياف فنلندا وسهوبها بحثاً عن الأغاني الشعبية والتي استطاع إلياس لونروت Elias

Lonnrot فيما بعد أن يؤلف منها ملحمة الكاليفالا Kalevala . ولهذا كان والين يتطلع إلى جمع "أدب البادية الشعري المثير . . الذي لا ينضب ولا يجارى في ثرائه وجودته" . ويختتم والين رسالته بهذه الفرضية التي يقول فيها "يبدو أن الطبيعة اختارت هؤلاء الأعراب الذين لم تحد فاقتهم من إنسانيتهم وبساطتهم ليجددوا من وقت لآخر الدماء في عروق الشعوب غير المتحضرة أو الشعوب التي أصابها الوهن والتفسخ . من ناحية، نجد أن جدب أراضيهم وشح مواردها يحميهم من الانحدار والانحلال الذي عادة ما تؤول إليه الأمم التي يتفشى فيها الغنى والنعيم . ومن ناحية أخرى نرى هذه الفاقة تدفع بهم للهجرة وترك بلادهم للبحث عن رغد العيش ويضخون تبعاً لذلك دماءً جديدة قوية فيمن يحلون بين ظهرانيهم" .

كان والين مضطراً للبحث عن جهات تمول رحلاته الاستكشافية إلى الشرق وبلاد العرب وخصوصاً الجمعيات الجغرافية الملكية في إنجلترا وروسيا . لكنه أيضاً كان شديد الحرص على أن لا يعرف الشرقيون عن هويته وأغراضه الحقيقية ومصدر تمويله حتى لا ينكشف أمره ويعرض نفسه ومشاريعه للخطر إذا ما شك المسئولون في بلاد الشرق أن مهمته وأهدافه لها أبعاد سياسية . فقد كتب إلى الدكتور نورتن شو Norton Shaw، أمين سر الجمعية الجغرافية الملكية في لندن، يحذره من إعطاء الأحاديث والإدلاء بالتصريحات عن رحلته ومخططاته "لأنه لو حملت الأخبار أنني أباشر رحلتي محفوفاً بهذه الرعاية العظيمة من إنجلترا وروسيا فمن المحتمل جداً أنه حالما أصل إلى القاهرة سيكون لي شرف تلقي دعوة من عباس باشا لأتناول معه فنجاناً من القهوة والذي ربما يكون آخر شيء يدرج في حلقي" .

أمضى والين السنتين الأخيرتين من حياته أستاذاً للغة العربية في جامعة هلسنكي وداهمته المنية سنة ١٨٥٢م وهو في سن الواحدةوالأربعين ولم يتمكن من تحقيق طموحه في العودة إلى جزيرة العرب .

جمع والين عدداً من القصائد أثناء إقامته في منطقة الجوف عام ١٨٤٥م ونشرها تباعاً بترجماتها ودراسات عنها في العددين الخامس والسادس من مجلة الجمعية الألمانية للاستشراقZeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft . نشر والين هذه القصائد خلال الفترة ١٨٥١-١٨٥٢م تحت عنوان "عينات لأنثولوجيا قصائد

عربية معاصرة جمعت من البادية" Probe au Seiner Anthologie Neu Arabischer Gesange in der Wuste Gesammelt . تضمنت هذه العينات ثماني قصائد يعرض كل منها على النحو التالي . يبدأ بكتابة القصيدة بالأحرف العربية ثم يكتبها كتابة صوتية مستخدماً الرموز اللاتينية وبعد ذلك يترجمها إلى الألمانية ويقدم للترجمة بمعلومات عن الشاعر ومناسبة القصيدة وعن الظروف التي جمع فيها نص القصيدة والشخص الذي رواها له وينهي عرضه بدراسة لغوية مفصلة .

وقد قام إمام المسجد الذي يدعوه والين "الخطيب الوهابي" بمساعدته في نسخ القصائد . ومن الواضح أن والين والإمام الذي كتب له القصائد غير متمرسين في التعامل مع الشعر النبطي وتذوقه، فالقصائد التي دوناها تعاني من خلل في الوزن وفي طريقة التدوين ويعاني بعضها من خلل في القافية ؛ وهذا يعود ، في أغلب الظن، إلى عدم كفاءة الراوي سلمان الذي أخذ عنه والين هذه القصائد . وفي الأسطر التالية التي أستعرض فيها عمل والين سوف أعمد إلى تعديل الأبيات التي أوردها من عمله وأكتبها حسب الرواية الصحيحة المتداولة بين رواة الشعر النبطي ونقاده المتمرسين أو حسب ما تقتضيه الرواية الصحيحة الواعية لهذا الشعر .

القصيدة الأولى أملاها الشاعر بنفسه على والين الذي ذكر أن اسمه مساعد وأشار إليه بأنه عبد من عبيد الجوف . حينما وصل والين إلى الجوف وجد لهذه القصيدة صدىً واسعاً ولاحظ كثرة ترددها على ألسنة الرواة في المجالس وتغنيهم بها على الربابة مما حدا به إلى البحث عن صاحبها لأخذها منه مباشرة . وصل والين الجوف بعد أن أحكم عبد الله بن رشيد، أمير حائل قبضته عليها . وكانت قبل ذلك تتكون من أحياء بينها عداء مستحكم وتعيش حالة خوف ونزاع لا ينقطع . ويتحدث والين في مقدمته لهذه القصيدة والتي تليها عن الوضع السياسي في الجوف . وهذه القصيدة التي تتألف من اثني عشر بيتاً قالها مساعد العبد من حي خذما يخاطب بها داره ويعلن تفانيه في الدفاع عنها . يقول مطلع القصيدة :

والله لو رادوك يادار ما أعطيك   ياكود مارد نازلٍ للجزيرة

والقصيدة الثانية تتألف من اثني عشر بيتاً قالها سالم العوض من أهل الجوف يمدح عبد الله بن رشيد وأخاه عبيد على مساعدتهما لأهل حي خذما على أهل حي اللهمية .

وقد ذكر الشيخ سعد بن جنيدل في كتابه عن الجوف (١٤٠١هـ، ص١١٨-١١٩) طرفاً من أخبار هذا النزاع . يقول سالم في مطلع قصيدته :

ياراكب من عندنا فوق عرماس		يشدا ظليمٍ طالع الزول زايل

القصيدة الثالثة قالها نمر بن عدوان أمير قبيلة العدوان التي كانت تقطن نقرة الشام أوحوران يرثي زوجته وضحا من بني صخر . وأملاها على والين شخص يدعى سلمان من سكان حي خذما في الجوف والذي يصف والين بنيته بأنها قوية ويقول بأن صحته جيدة على الرغم من سنه التي تناهز الستين . وأكد سلمان لوالين أنه كان تلميذاً لنمر بن عدوان تعلم على يده قرض الشعر وأن نمر هو الذي شجعه على قول الشعر وأنه بعد ما حفظ الكثير من أشعار نمر بدأ شيئاً فشيئاً يقرض الشعر بنفسه ويدعي بأن لديه صندوق ملأه بقصائد نمر . ويذكر والين بأن وصوله إلى الجوف سنة ١٨٤٥م كان بعد وفاة نمر بسنوات قليلة . ويضيف بأن نمر كان شاعراً واسع الشهرة وأنه كان متعلماً وضليعاً لافي استخدام المراجع الأدبية والقواميس التي يستقي منها مفرداته الغريبة والجميلة التي يزين بها أشعاره وأنه يدخل في قصائده مفردات من اللغة الفارسية وغيرها من اللغات. (وأود هنا أن أسجل تحفظي على ما ذكره والين وأستبعد أن يكون نمر على هذه الدرجة من العلم ولربما يكون هذا جزءا من النسيج الأسطوري الذي يحوكه الرواة منذ ذلك الحين حول شخصية نمر . بل إنني في ريبة من أمر هذا الراوي المسمى سلمان وأتردد في قبول ادعاءاته لأن القصائد التي رواها عنه والين، سواء كانت من إنتاجه هو أو من إنتاج "أستاذه" نمر ليست على المستوى المتوقع) . تتألف القصيدة التي أملاها سلمان على والين من ثمانية عشر بيتاً ومطلعها يقول :

يا خالقي بيجاه تسعٍ وتسعين		حرفٍ وما بيهن نُطِق من لغات

والقصيدة التالية برواية سلمان لنمر أيضاً يسندها على ابنه حمود وبعث بها معه إلى وضحاء حينما غاضبته وتركته وذهبت إلى أهلها . ويقول والين في معرض حديثه عن وضحاء أنها من الأدب بحيث لا تدير ظهرها إلى نمر حينما تنصرف من عنده وإنما تمشي على الوراء حتى تتعداه وتبعد عنه . مجموع أبيات القصيدة سبعة أبيات ويقول مطلعها :

ياخمودٍ اركب يم هاك القبيلة　　　　قل له ربيع بْلادنا مثل ما كان

(ويورد منديل الفهيد في الجزء الخامس من سلسلته قصيدة لنمر "يخاطب فداوياً عنده اسمه حمود" (ص ص ٤٨-٤٩) يبـدو عليها شبه واضح من هذه التي يوردها والين) .

القصيدتان الخامسة والسادسة برواية سلمان وهما قصيدتان متبادلتان بينه وبين شاعر آخر يدعى سكران من أهل الرحيبيين بالجوف . يقول والين عن سكران إنه شاعر فحل وراوية جيد وأنه سمعه مرة في الجوف ومرةٍ في حائل ينشد الأشعار دون توقف لمدة قد تزيد على ساعة ونصف وكانت قصائده دائماً تحظى بإعجاب الجماهير الغفيرة من الحضور . وهو شاعر متعدد المواهب يقول القصائد في كل موضوع وبعضها في المدح وكان يحصل مقابل ذلك على هبات على شكل "بالطو" أو "معطف" أو ما شابه ذلك . وغالباً ما ذهب سكران إلى ابن رشيد في حائل ليمدحه بقصائده ويرجع من عنده محملاً بالهدايا . هذا وقد عثرت في أحد مخطوطات الشعر النبطي على ما يفيد أن عبيد بن رشيد بعث مقطوعة من ستة أبيات لسكران ينصحه فيها مطلعها :

حي الكلام اللي بخطٍ لفاني　　　　من واحدٍ ما واهس القلب ناسيه

وقد حاول سكران أن ينظم قصيدة في مدح والين، الذي كان يمارس مهنة الطب بين أبناء البادية، عله يحصل منه على هبة سخية لكن والين، على حد قوله، كان بحاجة للعطف أكثر منه لقلة ذات اليد وكان يعيش على كرم "معازيه" من الشيوخ والأمراء وأجاويد العرب . سبب القصيدتين هو أن سكران وسلمان وقعا معاً في غرام فتاة تدعى "سويَر" دون أن يعلم أحدهما عن الآخر . وبعدما اتضحت الأمور لكليهما حاول كل منهما أن يتنازل عن الفتاة للآخر ولكنه في قرارة نفسه يأمل أن يغلبه صاحبه في النبل والشمم ويتنازل عن الفتاة لتكون من نصيبه هو . وفي النهاية تطير الفتاة من أيديهما ويتزوجها شخص ثالث . يقول سكران أربعة عشربيتاً يبدأها قائلاً :

بالله ريِّض ياريش العين أوصيك　　　　كان انت ناوي يم خذما تروح

ويجيبه سلمان بتسعة أبيت فقط تختلف قافيتها عن أبيات سكران مما يثير تساؤلات حول شاعرية سلمان . يقول مطلع القصيدة :

يا راكبٍ حـرٍ الى مـد بـكّـر   يا راكبه خد لي خفيف الرساله

القطعة السابعة التي يوردها والين وتتألف من خمسة أبيات مطلعها :

ياما حلا والشمس بادٍ شعقها   تحديرة الزرقا على نقرة الجوف

يزعم والين أن القصيدة أطول من ذلك بكثير وأن صاحبها، الذي نسي والين إسمه، رفض أن يرويها له وأن الذي روى له هذه الأبيات الخمسة سلمان . ويقول والين إن قائل هذه القصيدة شاب من أهل الجوف انتقل مع أبويه إلى الكرك وكان يقوم بزيارة قصيرة إلى الجوف أثناء وجود والين فيها . والقصيدة نشر منها منديل الفهيد أربعة أبيات مع قصتها في الجزء الأول من سلسلته ونسبها إلى ابن سراح (ص٢٥١) . والبيت الذي أورده والين ولم يورده منديل هو:

ان جواهل العيرات تومي علقْها   متبشرينٍ بالغدا حقّة الشوف

القصيدة الأخيرة مقطوعة قصيرة من ستة أبيات التقطها والين من رواة قبيلة بلي حينما كان يتنقل معهم وكانت تدور على ألسنة الجميع ويلهجون بها . ويقول والين إن "معزّبه" من بلي ذكر له أنه كان مرة بصحبة رفيق له يدعى مِشَلّ في زيارة لأحد شيوخ الفقرا (عنزة) وسمع أحد الحضور يتغنى بهذه القصيدة على الربابة . ويردف والين أن بدوياً من قبيلة بشر رافقه في رحلته من تيماء إلى حايل أكد له أن هذه أبيات قديمة قالها عقاب العواجي . (وهذه المعلومة التي سجلها والين عام ١٨٤٥م لو توافرت لدينا قرائن ومعلومات مشابهة لها لساعدتنا في تحديد الفترة التي عاش فيها عقاب العواجي وربما تأريخ بعض الوقائع والمعارك التي حدثت بين الجعافرة بقيادته وبين شمر) . ويعتقد والين أن القصيدة طويلة لكنه لم يتمكن من الحصول على أكثر من ستة أبيات . وقد بلغت هذه القصيدة تسعة أبيات عند الأسمر خلف الجويعان الذي نشرها في ديوانه "شاعر من نجد" ونسبها إلى عقاب العواجي (ص٢١٢) . يقول مطلع القصيدة :

ياشمعة الصبيان عمر لنا البوز   وامله من التتن الغويري وناسه

وعلى إثر أوجست والين يأتي قنصل بروسيا (ألمانيا الشرقية) في دمشق يوهان جوتفريد فيتشتاين Johann Gottfried Wetzstein الذي جمع بعض المخطوطات الشعرية بما فيها نص نثري جمعه عام ١٨٦٠م ونشره عام ١٨٦٨م تحت عنوان "ملامح

لغوية من مضارب البادية السورية" Sprachliches aus den Zeltlagern der Syrischen Wuste . يبدأ فيتشتاين مقالته بالحديث عن والين والإشادة بجهوده مع إبداء بعض الملاحظات عليها والتي يمكن تلخيصها فيما يلي : ما نشره والين لا يمثل إلا جزءاً ضئيلاً من المادة الشعرية المخطوطة التي جمعها أثناء إقامته في معان وتيما وحائل ودومة الجندل ومشهد علي وعاد بها إلى أوروبا (ترى أين هذه المادة المخطوطة ؟) . وكانت إقامة والين في حائل بعد الحروب التي جرت بين حائل والقصيم والتي قيل فيها قصائد كثيرة جمع والين بعضاً منها . ويزعم فيتشتاين أن تلك الفترة التي استتب فيها الأمر لابن رشيد في حائل، وخصوصاً بعد انتصاراته على "القصمان" التي ألهبت حماس الشعراء، ازدهر الشعر كثيراً في جبل طي وبشكل ليس له مثيل . والنماذج الشعرية التي نشرها والين ليست بذات قيمة فنية كبيرة ومن المشكوك فيه أنه كان يفهمها فهماً جيداً . ويرجح فيتشتاين أن عدم نشر والين للقصائد الأخرى هو أنه جمعها على شكل مخطوطات عارية من الشروح والتعليقات لذلك فهو لا يفهمها ولا يستطيع التعامل معها . ومع ذلك يعترف فيتشتاين لوالين بشرف الريادة ويقر بأن النماذج التي نشرها هي أول معلومات لغوية يتلقاها الغرب من الصحراء العربية . إلا أنه يشير إلى أن الدكتور بيرتش W. Pertsch أمين مكتبة جوتا Gottha ذكر له أن فون سيتزين Seetzen أودع في مكتبة جوتا مجموعة خطية من القصائد التي جلبها من شرق الأردن، وخصوصاً من منطقة السلط والبلقا حيث تلتقي البادية مع الحاضرة ويترعرع فن الشعر .

وكان سيتزين يجيد التحدث بالعربية لكنه لم يكن متمكناً من القراءة والكتابة بها لذا لم تكن تتوافر لديه الكفاءة لنشر القصائد التي جمعها ولا دراستها . (وقد أطلع ألبرت سوسين Albert Socin على هذه المخطوطة وقال عنها أنها كتبت بعدة خطوط وأنها سيئة جداً ولا تتضمن أي قصائد من نجد . كما يؤكد سوسين الذي زار الشام وبلاد الرافدين بأنه لايوجد رواة جيدون في مناطق البلقا وحوران) .

بعد هذه المقدمة يبدأ فيتشتاين بالحديث عن القطعة النثرية "السالفة" التي دونها في مضارب قبيلة ولد علي من عنزة وفي بيت عقيدهم صالح الطيار، حفيد كنعان الطيار، من عجوز شراري كان يحل ويرحل مع هذه القبيلة منذ ثلاثين عاماً يروي فيتشتاين أنه في أواخر صيف ١٨٦٠م جفت البحيرات القريبة من دمشق بسبب قلة نزول الأمطار

وتحولت في نهاية سبتمبر إلى مراتع خصبة . وكانت تلك السنة سنة عجفاء بالنسبة للبادية نفق فيها معظم حلالهم مما حدا بهم للقدوم من قريب ومن بعيد إلى تلك البحيرات التي امتلأت في شهر أكتوبر بالمخيمات والمواشي من مختلف القبائل التي جــاءت لترعى عشبها . وعلى الرغم من أن تلك القبائل كانت في نزاع مستمر بعضها مع بعض ولسنين طويلة إلا أنها اضطرت في تلك السنة إلى التصالح والتعايش لتتمكن من الرعي في أحواض تلك البحيرات التي تحولت إلى حقول خضراء (هذا يذكرنا بغيضة الأديان التي قطنت عليها قبائل شمر وعنزة والظفير وفيها تمكن ماجد الحثربي من الأخذ بثأره من مفوز التجغيف) . ويضيف فيتشتاين أن الفضول حدا به إلى الذهاب هناك لمشاهدة ذلك التجمع القبلي الضخم الذي شكل مشهداً عجيباً لافتاً للنظر ومثيراً للدهشة . وفي الثامن والعشرين من أكتوبر خرج من دمشق إلى حران وفي التاسع والعشرين منه نزل ضيفاً على صالح الطيار في خيمته، حيث كان أولاد علي ضاربين خيامهم في بحيرة عتيبة (اسم المكان وليست القبيلة المعروفة) . وهناك التقى بالشيخ الشراري الذي دون منه السالفة إضافة إلى سوالف وقصائد أخرى منها قصيدة كنعان الطيار وقصته مع بنت ابن طواله . ويقول فيتشتاين أن شيخة أولاد علي في بيت سمير بينما تحتفظ عائلة الطيار بمركز الغقادة، أي قيادة القبيلة في الحروب والغزوات .كما يضيف أن قبيلة الشرارات آنذاك تنتشر من تبوك إلى الجوف . لكن جدب منطقتهم لا يسمح لهم بحياة رغيدة لذا يضطر الكثير من رجالهم إلى ترك منطقتهم وقبيلتهم للعيش مع قبائل عنزة والبلقا وحوران الذين يقدرونهم ويحترمونهم لشجاعتهم ومهارتهم في استخدام السلاح وإجادتهم الشعر . كما يتميزون بخفة الروح والظرف وطيب المعشر في السفر .ينشر فيتشتاين السالفة التي تقع في سبع عشرة صفحة مكتوبة بالأبجدية العربية ويتبع ذلك بترجمة ألمانية وتعليقات لغوية وإثنولوجية لكنه لا يكتبها بالأبجدية الصوتية اللاتينية .

والسالفة التي دونها فيتشتاين من الشراري لا يبدو أنها قصة تاريخية وقعت فعلاً لكن أجواءها واقعية ولغتها بدوية، كما أنها مليئة بالعبارات الجميلة والصور الشاعرية التي تعكس حياة البدو وذوقهم . وهناك روايات أخرى للسالفة نشرها عبدالله بن عبار العنزي في كتابه "قطوف الأزهار" (عنزي ١٩٨٥م ٧٣٥ – ٧٤٠) . ملخص السالفة كما يوردها فيتشتاين أن شمرياً وخالدياً جار عليهما الزمان وتنكر لهما الأهل والأصحاب مما

اضطر كلاً منهما إلى الجلاء عن قبيلته . وحينما ذهب الخالدي يرتاد مكاناً لأهله تقابل في إحدى الرياض المعشبة مع الشمري الذي كان هناك لنفس الغرض . وبعد أن عرف كل منهما مأساة الآخر اتفقا على الجوار والنزول معا في تلك الروضة الخصبة . ولم يكن للشمري من الأولاد إلا بنت اسمها حمدة أما الخالدي فله ابن واحد اسمه هباس (وبالمناسبة فإن عزوة قبيلة بني خالد "أولاد هباس" أو "أولاد هبس") . ولرغبة الخالدي في مجاورة الشمري موّه عليه وقال له إنه مثله ليس له إلا بنت اسمها حمدة أيضاً، لأنه خاف لو علم الشمري بأن له ولداً لما قبل مجاورته خوفاً على بنته . وأمر الخالدي ابنه هباس أن يتزيا بزي البنات ويتصرف مع حمدة كما لو كان فتاة مثلها . لكن الحقيقة دوماً لابد وأن تظهر . فقد صادف ذات يوم أن أغار قوم من الغزاة على إبل الشمري والخالدي ونهبوها . ولما عجز الأبوان عن استرداد الإبل اضطر هباس إلى أن يأخذ سلاحه ويركب الفرس ويسترد الإبل . ولما علم الشمري بحقيقة الأمر غاضب جاره الخالدي ورحل عنه . لكن الحب كان قد تمكن من قلب حمدة وهباس وصار كل منهما يحن إلى الآخر ويتحرق لرؤيته . وبعد مغامرات عديدة ومعاناة طويلة تتحقق الآمال ويلتئم الشمل ويقترن هباس بحمدة . ونورد هنا بداية السالفة ونكتبها بنفس الطريقة التي كتبها بها فيتشتاين :

وكان شيخ الخوالد رجال الله منطية ولا له كود وليد اسمه هباس وكانت العربان تتلي ها لشيخ وهو راعي شور,مليح لين شوره على الغزو من أين ما ضربه الله يجيبه معه راس والسعد هاب له . ويوم راد الله يهبّط به يالله عونتك وكان النحس يتولصه لما دعاه بلون راعي، وتفسقلت عنه العربان وصارت ما تشتهي تنزل حوله . وظهر واحد غيره راقصة له الدنيا وسعوداته زينات يالله عونتك راكبته العرب بالمغزا وبالرحيل والنزيل والشور والقول عنده . وهاذاك الشيخ الاول صار الراعي عندهم له قيمة أزود منه، وباقي عنده من حلاله فرس وراه مهرة ثنية ودرع وجوزين رداني وسيفين ورمح وعندهم يلفي عشرين بعير ولاكن حالته زرية بين ربعه وواسوه مسخرة، وكن قال هالشيخ لحرمته ياحرمة أنا طابت نفسي من هالعربان ومنازلهم حارم عليّ فلا أنزل ياغير ديرة ما ينزله كل مودماني حتى ما أشوف احد ولا احد

يشوفن . وأمر على حرمته تواسي له زهاب الدرب وبل له جود ماء وشد على ذلوله و كرب عليه الحقب والبطان ونسف عليه الخرج وعلق الجويد وشذب اليا هو بظهر ذلوله ويممه نية الشرق . وقلط الله بالنهار ينطحه وبالليل يمرح وثمانة أيام على الوجه اليامه طب على هك الروضة الّي ما تخالف عشابه من رقيطة ومن الخافور ومن البختري ومن المرار ومن النفل واشكال ما تنعرف . ونوخ ذلوله وعقله ةولاكن الذلول تشبع من مطواه وهاذا هوقاعد يمشي بوسط العشاب يوم بحر اليا الفتيل مثل بصبوصة النار معلق، اليا هو بواردي وثرات البواردي شايفته من بعيد وداغلته يريد يقوّسه وكن شافو بعضهم . وكن قال الخالدي الي هاذاك : وش انت يا زلمة ؟ قال : أنا الي تشوفن، وانت وش انت ؟ قال له وانا الي تشوفن ولاكن أنا سياف وانت بواردي وحق السياف مع البواردي حقا زري . قال وش جيباك لهالمكان ؟ قال : والله ياولد ما جابن إلا شوم الدهر . وكان هاذيك الساعة ترتخي إيده لأنه صايبه ما صاب الخالدي . ونشده من أيات القبائل انت قال له يارفيق الخير والله أنما خالدي على الشينة وعلى الزينة . قال حق الله والقوم أنا شمري ولاكن الخلا بين الاجواد حجاز اما عاد انت احك لي وش الي موصلك لهالمكان . بدا يحكي له بكلش صار به من الاول إلى التالي . وثرات الشمري صايبه ما صاب الخالدي وجاي بعد يدور له على ديرة ما حد ينزل به والله جمع هالتنين إلى هالمكان . وقاموا هاذيك الساعة كدّم على بعضهم البعض وتسالموا وباتم هك الليلة .

وهذا مقطع آخر من السالفة :

يوم ذات الايام سارحات البنات بالطرش ولن الله سلط عليهن غزو وغار الغزو على البنات وأخدوا الطرش . قامن البنات يصيحن : الطرش وخد ياهل الخيل . سمعوا ابّاتهم الصياح شدوا على خيلهم وركبوا ولحقوا الطرش حتى يفكوه والبنات يركضن وراهم . وقالوا الشياب إلى القوم : العقلة يا أهل الخيل . قال عقيدهم : عقبولهم قدر عشرة بعارين . فقالوا الشياب : ما يجزينا عشرة . وقال العقيد : وما شأن البنات النشامة عقبو سته . وقالوا الشياب :

ما يقيّمنا ترانا بدو خلاوي وديرة منقطعة ومسقمين عل الله وعلى لبنهن والعذر لله وليكم ماش أحدٌ غيرنا حنا هاللي تشوفون وهالبنات وعجائز ثنتين لكل واحد عجوز وجار علينا الزمان وعربانّنا طشت عنا وتدمّنا هالمكان ولا لنا معاش غير الله ولبن اباعرنا . قال واحد : وش عذرنا من طحانات الزهاب يوم لفينا نقول لهن كسبنا طرش وصنمه ثنين شيب لحقونا وطلبوا العقلة وردينا لهم أباعرهم وحنا متحزمين عليها ؟ هاذا ما يصير هالحكي والله ما لكم عندنا غير هالحراب ان كان بكم خير هذا حلالكم قبال عيونكم والا نوخذ البنات بعد ونخلي الوحوش تاكلكم . يوم سمعوا الشباب هذاالكلام قالوا : الحملة على الله وانتم القالطين عليها، انتم مستعينين بكثر خيلكم وحنا مستعينين بالله . وعلقوا الطراد ضلوا يطاردونهم من الضحا للعصر والشياب ما جازوا الخيل والخيل ماجازوا الشياب ولاكن الشياب اتلفوا . يوم هباس شاف الشياب عدموا روح يركض على البيوت وهو يركض قرّط المواعين ما خلا عليه إلا طاق البيرمة . يوم قامت امه تشد عالمهرة المرشحة وسففته العنان وطلعت السيف والرداني والجوخة . جتها الشمرية وقالت : انتي تشدين على هالمهرة وين راعيه ؟ قالت ام الولد ذلوان يلفي وتشوفين بعينك . وهذاهن يتحاكين والا الولد نافذو عليهن يركض قامت امه تزغرت إله . لفى ولبس الجوخة واتحزم بالرداني والسيف وشقلب لنه بضهر مهرته وكان يجيبه على مهله تهرب برافق الياما أقبل على حمدة وكان يعرض عنده وينتخي : عيناك ياحمدة زغرتي لهباس . قالت : ياخي وش هباس ؟ قال : رفيقتك تراه هو ولد ماهو بنت . قامت تعج الزغاريت مثل صهين المهار وقمت تشوش والنخوة براسه . وقام لكد عالخيل وحمدة نثرت شعره وراه وزغرتتله . وهو يقول : يابخت حمدة بالقلايع . والشياب وقفوا لأنهم عدمانين . وانك ياهباس تناطح انت وهك الخيال ضربه سيف اليا هو قاطع راسه جاب فرسه لعند حمدة ربطه بايدها وقامت حمدة تنخيه . ويركض عليهم ثاني مرة ويرمي ثلاثة ويجيب خيلهم ويفك الطرش وباقي خـيل القوم نارت وروحوا هاذول مبسوطين .

وفي العقد الثامن من القرن التاسع عشر كان ألبرت سوسين Albert Socin يتجول في الشام وبلاد الرافدين ويقوم بجمع الشعر من البلقا وحوران ودمشق وحلب وبغداد وسوق الشيوخ، وحتى من ماردين على الحدود السورية التركية . ونشر حصيلته الضخمة عام ١٩٠٠م والتي هي بمثابة أول ديوان يطبع في الشعر النبطي مع ترجمات ودراسات لغوية وإثنولوجية مفصلة ويقع الكتاب في حوالي ثمانمائة صفحة ويتضمن مائة واثنتي عشرة قصيدة . قابل سوسين في طريقه من دمشق إلى بغداد حملة من تجار العقيلات الذين أرشدوه في بغداد إلى مهاجر من أهالي بريدة اسمه محمد ويلقب بالأفندي لأنه يجيد القراءة والكتابة . وأملى محمد على سوسين الكثير من القصائد التي كان يحفظها عن ظهر قلب . وقابل سوسين شخصاً من مدينة عنيزة اسمه مسفر كتب عنه بعض القصائد لكن روايته لم تكن بجودة رواية محمد . ومحمد الحساوي من الاحساء هو الراوية الثالث الذي قابله سوسين في سوق الشيوخ ووصفه بالغباء وعدم الفهم ولكنه اكتتب منه بعض القصائد واشترى منه ديواناً مخطوطاً يحتوي على الكثير من القصائد . وفي ماردين جمع سوسين بعض النصوص الركيكة من فلاح قال له إنه من قبيلة طي . ويقول سوسين أنه رأى الكثير من مخطوطات الشعر النبطي ، من ضمنها ديوان نمر بن عدوان .

وفي سنة ١٩١٩م نشر كارلو دي لاند برج Carlo de Landberg ثلاث سوالف بقصائدها جمعها أثناء تجواله بمنطقة حوران . ويشير لاندبرج إلى أنه جمع السالفة الأولى والثالثة من فلاح مسيحي يدعى موسى رارا من أهالي قرية خبب التي تقع في حوران . والغريب أن لاندبرج يدعي أن موسى هذا أكد له أنه هو الذي أملى على فيتشتاين في دمشق السالفة التي أوردنا طرفاً منها أعلاه وأن فيتشتاين لم يذهب بتاتناً إلى مضارب قبيلة ولد علي كما يدعي . السالفة الأولى التي يوردها لاندبرج سالفة ماجد الحثربي مع قصيدته التي مطلعها حسب هذه الرواية "ياعمرو يامشكاي يافرحتي شوف" ومجموع أبياتها سبعة عشر بيتاً . لكن السالفة كما أوردها لاندبرج تختلف كلية عما هو متداول بين الرواة في نجد وشمال الجزيرة العربية . كما تختلف أيضاً رواية السالفة الثالثة التي تتحدث عن سعدون العواجي وما جرى له مع شامخ عن تلك التي أوردها محمد بن أحمد السديري في كتابه أبطال من الصحراء . نجد مثلا أن مزعل العواجي في

هذه الرواية يصبح ابناً لسعدون وأن مسلط (التمياط) يصبح من العواجية وهو الذي يضطهد سعدون يساعده في ذلك ابن عمه شامخ (كذا) . وقصيدة سعدون التي يوجهها لمسلط التمياط ويبدأها بقوله "يا راكب اللي مانهجها الجنينا" تنسب لعقاب الذي يوجهها في هذه الرواية لأبيه . وتتضمن السالفة أيضاً قصيدة سعدون التي مطلعها :

ياراكب من عندنا فوق مهذاب زواع قطاع الغيافي إلى نويت

وقصيدة ذكر العواجية التي مطلعها :

ياغوش ياللي فوق حيل هفاهيف ليهن بكم عقب المسير اجتوالِ

مع اختلاف واضح بين هذه الرواية وما هو متداول بين الرواة في نجد وشمال الجزيرة . كما يورد لاندبرج سالفة عن شيخ من شيوخ البادية يسمى الحياري وانتصاره على الدالي موسى الذي أرسلته الدولة العثمانية للقضاء عليه . وبعد انتصاره على الدالي يقول الحياري قصيدة من ثمانية عشر بيتاً يبدأها بقوله :

يقول الحياري الذي شاع ذكره وحمد الفتى قبل الفعال ضلال

وعلى الرغم مما أوردناه من ملاحظات على هذه الروايات وصحتها التاريخية إلا أن صياغتها جيدة وأسلوبها جميل ولغتها قريبة جداً من لغة البدو وطريقتهم في السرد والرواية .

في عام ١٩٠٨م بدأ الأويس موزيل Alois Musil رحلاته الاستكشافية في شمال الجزيرة العربية . وأمضى بعض الوقت يحل ويرحل مع قبيلة الرولة تحت حماية الشيخ نوري بن شعلان وتسمى باسم موسى الرويلي . وموزيل تشيكوسلوفاكي الأصل وشغل منصب أستاذ الدراسات الشرقية في جامعة تشارلز في براغ . ونشر نتائج أبحاثه في سلسلة من الكتب باللغة الألمانية التي ترجمت فيما بعد إلى الإنجليزية ، ومن أهمها كتابه عن قبيلة الرولة الذي نشر بالإنجليزية عام ١٩٢٨م . ويحتوي هذا الكتاب على كم وافر من السوالف والقصائد والأحديات ويزخر بالمعلومات الثرية عن حياة البدو . ومن الذين استعان بهم موزيل في الحصول على مادة كتابه الشيخ النوري بن شعلان وكاتبه جواد أبوعلي العاني وعبده حمار أبو عواد وكذلك عوده أبو بركان الكويكبي وأبو منديل القطعي ومحمد القضيب وعبد الله المطرود وكلهم من الرولة ، بالإضافة إلى بليهان بن

إبراهيم بن داغر بن ضري بن مصرب من القمصة من السبعة . (ومنديل القطعي الذي ذكره موزيل يرد إسمه في السوالف التي جمعت من رواة شمر خلال الفترة ١٤٠٣–١٤٠٥هـ) . وقد سبق أن قمت بجمع جميع الأحديات التي بثها موزيل في كتاب الرولة ونقلتها إلى العربية ونشرتها تحت عنوان "حداء الخيل" وقدمت لهذا الكتيب بمقدمة تلخص محتويات كتاب الرولة . والآن أصبحت الفصول الأولى من كتاب الرولة متاحة لقراء العربية بفضل الترجمة التي أعدها الدكتور محمد السديس . ومن يريد مزيداً من نماذج أحادي الخيل يمكنه الاطـلاع على العمل الذي نشره أحمد العريفي في هذا الموضوع .

ومنذ بداية القرن العشرين استحوذت قبيلة الرولة على اهتمام الرحالة الأجانب فكتبوا عنها كتباً مطولة ومفصلة، منها بالإضافة إلى كتاب موزيل كتاب نشره كارل رسوان Carl Raswan سنة ١٩٣٥م تحت عنوان The Black Tents of Arabia وهو مزود بالصور المعبرة منها صورة للشيخ النوري بن شعلان وحفيده فواز بن نواف وصور أخرى عن حياة الرولة في حلهم وترحالهم وفي حالات السلم والحرب . وفي عام ١٩٨١م نشر ويليام لانكاستر William Lancaster كتاباً بعنوان The Rwala Bedouin Today وهو دراسة أنتروبولوجية لقبيلة الرولة وما طرأ عليها من تغيرات في وقتنا الحاضر .

وفي الثلاثينات من هذا القرن الميلادي نشر روبرت مونتان Robert Montagne بعض السوالف والقصائد التني دونها من رواة شمر الجزيرة . اثنتان من هذه السوالف والقصائد تتعلقان بحياة شايع الامسح ومغامراته، والبقية تتألف من ست عشرة سالفة بقصائدها جمع العشر الأولى منها من هليل العلوان من عبدة وجمع الخمس التي تليها من محمد الخشان من الخرصة والأخيرة جمعها من قبيلة طي . وهذه قائمة بعناوين السوالف الست عشرة كما أوردها مونتان :

١ – سالفة بهيج بعقده .

٢ – سالفة الهذال عبد العزيز وعبد الله ابن عمٍ له .

٣ – سالفة مطلق الجربا بنجد .

٤ – سالفة لابن سعود يخطب بنت لابن قرمله، شيخ قحطان .

٥ – سالفة عقاب وحجاب .

٦ – سالفة ابن رشيد يتنارا بهايس .

٧ – ساجر الرفدي قوماني على محمد بن رشيد .

٨ – سالفة حزير الرعوجي عاشق بنت عمه حروه .

٩ – سالفة جدعان بن مهيد غزا على شمر .

١٠ – سالفة الدقيس، ابن سويط عاشقه .

١١ – كنعان الطيار عند مطلق الجربا .

١٢ – صفوق بديرة العراق .

١٣ – مطلق بنجد .

١٤ – صفوق وحمود العامر ابن أخيُه .

١٥ – سالفة محسن الهزاني .

١٦ – سالفة الموالي وطي بالجزيرة .

والقيمة الأدبية لهذه السوالف ضعيفة جداً ويبدو أن الرواة الذين أخذ عنهم مونتان ليسوا على المستوى المطلوب . وواضح من عناوين هذه السوالف أنها من الأدب المتداول عندنا في نجد، لكن الروايات النجدية حسب ما سمعتها وجمعت بعضاً منها بنفسي من مصادر شفهية أفضل من هذه بكثير .

وفي عام ١٩٣٨م نشر المستشرق الألماني ج ج هس J.J. Hess كتيباً يحتوي على حكايات وقصائد وعادات وتقاليد البدو في قلب الجزيرة العربية . يحتوي الكتاب على مواد لغوية وإثنوجرافية وأدبية ومعلومات أخرى تلقي بعض الضوء على حياة البادية . استقى هيس مادته مشافهة من اثنين من البدو الذين التقى بهما في القاهرة أحدهما عتيبي اسمه موهق بن عايض بن عجاج الغنامي والآخر قحطاني اسمه مسفر . ويمتدح هس موهق ويشيد بفصاحته وبراعته في السرد والرواية وقدرته على توصيل المعلومات

وتفسيرها، ويقول أنه أمضى معه قرابة خمس سنوات في القاهرة تعلم منه خلالها كل ما يعرفه عن لهجة عتيبة وعاداتها وتقاليدها . عمل موهق مع محمد البسام، الذي يعد من أكبر تجار عقيل، في جلب الإبل إلى مصر والشام . وخلال عمله مع ابن بسام تردد موهق على القاهرة وعرفها جيداً . وخلال الحرب العالمية الأولى عمل جندياً في جيش الشريف حسين . وبعد فتح الحجاز واشتداد وطأة الإخوان فضل موهق الانتقال إلى مصر عام ١٩٣٠م والإقامة هناك حيث عمل خفيراً في عزبة عزيز عزت باشا . ومن المؤسف أن القصائد القليلة التي يتضمنها كتاب هس ترد بالترجمة الألمانية دون الكتابة الصوتية أو الأصل العربي .

وبعد ذلك مرت فترة فترت فيها الجهود الاستشراقية في مجال جمع ودراسة الشعر النبطي وإن كانت قد نشطت بشكل ملحوظ فيما يتعلق بدراسة اللهجات . وسبق أن ألمحنا إلى أن فنلندا، على يد أوجست والين، لها فضل السبق والريادة من حيث الاهتمام الأكاديمي بالشعر النبطي . وفي السبعينات من هذا القرن تعود فنلندا مرة أخرى على يد البروفيسور هايكي بالفا Heikki Palva من جامعة هلسنكي لتحتل مركز الصدارة في هذا المجال . والبروفيسور بالفا عالم مرموق في مجال الدراسات اللغوية والأسلوبية، وخصوصاً دراسة اللغات السامية واللهجات العربية وأسلوب الرواية الشفهية ، ومؤلفاته في هذا المجال أكثر مما يفسح المجال بحصره هنا . وتتركز اهتماماته بدراسة لهجات بادية الأردن مثل الحويطات والعجارمة وبني صخر ومناطق السلط والبلقا وحصبان . ونشر بالفا مقالة عن قضايا الوزن في الشعر البدوي من وجهة النظر اللغوية .

ولا تخلو دراسات بالفا اللغوية من النفس الأدبي نظراً لطبيعة المادة التي يتعامل معها والتي تتألف في معظمها من سوالف وقصائد شفهية يسجلها من الرواة أثناء وجوده بين أهل المناطق والقبائل المذكورة . ودراسات بالفا عظيمة الفائدة من الناحية اللغوية والأسلوبية، لكنها قد تكون أقل قيمة من الناحية الأدبية بالنسبة للمهتمين بالشعر النبطي . من يقرأ السوالف والقصائد التي يوردها في دراساته لا يخامره أدنى شك في أن منشأها من نجد ومن القبائل التي تقطن شمال الجزيرة العربية . لكنها أثناء هجرتها إلى الأردن وفلسطين تصبح على ألسنة الرواة من الفلاحين هناك مختلفة اختلافاً واضحاً عن

الهولندية بالرياض بدأ اهتمامه بلهجة نجد والشعر النبطي . وطوال السنين التي أمضاها في عمله بالسفارة كان دؤوباً على مجالسة الرواة والشعراء النبطيين البارزين وقراءة الدواوين الشعرية المطبوعة وكل ما يتعلق بالشعر النبطي من مصادر تاريخية وجغرافية حتى أصبح يفهم هذا الشعر ويتذوقه ويتحسس مواطن الجمال فيه والإبداع بشكل يفوق جميع من سبقه من المستشرقين ثم صار يشد الرحال إلى البادية ويمضي الأسابيع والأشهر يجوب الفلوات حتى سبر حياة البدو وتمثل قيمهم واستوعب طرائقهم في السلوك والتفكير والتعبير .

نشر كوربرسهوك العديد من الدراسات والمقالات عن الشعر النبطي باللغات العربية والهولندية والإنجليزية . ومن أهم أعماله كتابان ؛ الأول صدر عام ١٩٩٤م ومجموع صفحاته ٣٦٨ صفحة وهو عبارة عن جمع ودراسة لأخبار وأشعار الشاعر عبد الله بن محمد بن حزيّم الدوسري الملقب الدندان من الحرارشة من الرجبان جمعها من الشاعر نفسه أثناء تجواله معه في بادية وادي الدواسر . والآخر صدر عام ١٩٩٥م ومجموع صفحاته ٥١٠ صفحات وهو جمع ودراسة لأشعار وأخبار الفارس شليويح بن ماعز العطاوي وأخيه بخيت جمعها مشافهة من خالد بن مشعان بن فاجر بن شليويح العطاوي أمير مركز عبلا قرب عفيف . وتتميز دراسات مارسيل بالدقة العلمية والعمق والشمولية والفهم الواعي والسليم لمعاني الشعر النبطي ولغته وصوره وأساليبه الفنية .

ثم هناك عملان تم نشرهما بجامعة كاليفورنيا سنة ١٩٨٥م وهو عبارة عن مقدمة عامة عن الشعر النبطي تطرقت لمواضيع عديدة منها أوزان الشعر النبطي ولغته وعلاقته بالشعر الجاهلي ونظرية الصياغة الشفهية ومدى انطباقها على الشعر العربي . والكتاب الآخر نشرته دار هاراسوتز Harrassowitz في ألمانيا سنة ١٩٩٢م وهو عبارة عن دراسة لغوية وإتنولوجية لسالفة طويلة بلهجة شمر تتخللها بعض القصائد وتدور حول مغازي هذلول الشويهري من السويد من شمر على الشرارات وعنزة وكيف قبض عليه عقاب العواجي وقتله وكيف غزا هايس القعيط من العراق على الجعافرة في نجد وقتل عقاباً وأخاه حجاباً ثأراً لمقتل هذلول .؟ هذا بالإضافة إلى ثلاث مقالات نشرت بالإنجليزية في دوريات أجنبية إحداها عن أوزان الشعر النبطي وأخرى عبارة عن تحليل وترجمة لقصيدة والسالفة المتعلقة بها والأخيرة مقالة نشرت عام ١٩٨٩م في مجلة Oral

Tradition عن المحاورات الشعرية أو ما يسمى شعر القلطة . وفي دراستنا لهذا اللون الشعري ومقارنته بما يماثله في البلدان العربية الأخرى يمكن الاستفادة من مقالتين نشرتا باللغة الإنجليزية إحداهما كتبها عدنان حيدر Adnan Haydar عن شعر المحاورة في لبنان، ويسمونه الزجل، والأخرى كتبها ضرغام سبيت Dirgham H. Sbait عن شعر المحاورة في فلسطين .

ثم هناك عملان مهمان وإن كانا يقعان جغرافياً وثقافياً على هامش دائرة الشعر النبطي . هذان العملان هما : دراسة ليلى أبو لغد Lila Abu Lughod عن أشعار نساء قبيلة ولد علي في صحراء مصر الغربية ودراسة ستيف كيتون Steve C. Caton عن شعر قبائل بكيل في منطقة خولان الطيال شرق اليمن . أرى أن هذان العملان يمثلان نموذجاً ممتازاً في تطبيق المقترب النقدي الأنثروبولوجي في دراسة الشعر العامي ومحاولة الغوص إلى أعماق الوظائف النفسية والاجتماعية لهذا الأدب ومحاولة الاستكشاف البنى الذهنية والشعورية التي تشكله .

مصــادر ثانويــة

ثم هناك المصادر الثانوية التي لا تتناول الشعر النبطي بشكل مباشر لكنها تشكل أدوات مهمة من أدوات البحث التي لا غنى عنها للباحث المدقق . ومن أهم هذه المصادر هي تلك المصادر اللغوية والإثنوجرافية . ومن أبرز المهتمين بدراسة اللهجات البدوية وأساليب التعبير الشفهية هايكي بالفا Heikki Palva وبروس إنغام Bruce Ingham الذين سبق الحديث عنهما . ومن رواد دراسة اللهجات البدوية جين كانتينو Jean Cantineau وت.م. جونستون T. M. Johnstone وهايم بلانك Haim Blanc .

كما تشتمل قائمة المصادر الأجنبية على أبرز أعمال الرحالة الأجانب ممن جابوا أرجاء الجزيرة العربية وبعض من عملوا في المجال الدبلوماسي والذين تمثل كتاباتهم أهم المصادر الإثنوجرافية التي تساعدنا على تمثل البيئة التقليدية التي نشأ فيها الشعر النبطي . وإضافة إلى أعمال جورج أوجست والين و لويس موزيل وغيرهما ممن سبقت الإشارة إليهم هناك أعمال أخرى في غاية الأهمية . ويعد يوهان لودفيج بوركهارت

رشيد وزامل بن سليم وحسن بن مهنا وتصادف وجوده في حائل مع عودة راكان بن حثلين من حبس الأتراك . عايش داوتي البدو وعاشرهم في حلهم وترحالهم، في الشدة والرخاء، وفي السلم والحرب وشاهد بعينه عمليات الغزو وتعرض هو نفسه للسلب . ويصف داوتي كل مشاهداته وانطباعاته وصفاً دقيقاً شيقاً، لا تفوته شاردة ولا واردة . ولاقى داوتي عنتاً شديداً في رحلته لأنه كان يصر على المجاهرة بدينه المسيحي دون احترام لمشاعر الناس البسطاء وكان شديد التعصب ضد الإسلام . وعلى الرغم من صعوبة لغته وغرابة أسلوبه، وعلى الرغم من طوله المفرط ورؤيته المتحيزة أحياناً يبقى كتاب داوتي عملاً عملاقاً ومثيراً تتجدد قيمته مع مرور الوقت نظراً لما يحتويه من معلومات تفصيلية عن حياة البادية والحاضرة في شمال نجد .

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي توافد على حائل وشمال نجد عدد من الرحالة والمستكشفين منهم، بالإضافة إلى داوتي، كارلو جوارماني Carlo Guarmani الإيطالي ويوليوس يوتنج Julius Euting الألماني وتشارلز هوبير Charles Huber الفرنسي والليدي آن بلنت Lady Anne Blunt التي جاءت من انجلترا بصحبة زوجها ولفريد سكاوين بلنت Wilfrid Scawen Blunt . ولا تخفي الليدي بلنت في كتابها Pilgrimage to Najd عشقها وزوجها لحياة الصحراء وتعاطفها الشديد مع البدو وتعطي معلومات شيقة عن بلاط محمد بن رشيد وخيله وقصوره ونسائه . ونظراً لكونها امرأة، أتيحت لليدي بلنت فرصة لم تتح لغيرها من المستكشفين فولجت إلى داخل قصور الرشيد وخالطت نساءهم واطلعت على خصوصيات حياتهم العائلية وكتبت عن ذلك بشكل مفصل . وتقول إنها رأت في بلاط ابن رشيد ولأول مرة جهاز التليفون الذي كان آنذاك اختراعاً حديثاً لم تكن قد رأته قبل وصولها إلى حائل . أما هوبير فإن من أطرف ما يورده في مذكراته ذكره للدعوة التي أقامها في المنزل الذي يقيم فيه على شرف حسن بن مهنا وراكان بن حثلين حيث قدم لهما أنواعاً من المشروبات والحلويات اللذيذة التي لم يألفاها ولم يسبق لهما تذوقها .

وخلال فترة خدمته في الجيش البريطاني في العراق والأردن اتصل الضابط البريطاني جلوب باشا John Baggot Glub بأبناء البادية وتعرف على حياتهم وكتب عنهم عددا من الكتب والمقالات . ويقدم جلوب باشا في كتاباته معلومات قيمة عن حركة الإخوان

وزعمائهم وطرقهم في الغزو والغارات التي كانوا يشنونها على مناطق الحدود العراقية . ومن الكتب المهمة عن حركة الإخوان وعن حياة البدو عموماً كتاب The Arab of the Desert الذي كتبه ديكسون H. R. P. Dickson والذي أمضى سنين طويلة في العراق والبحرين والكويت .

ولايليق أن نبخس هؤلاء الرحالة والمستكشفين حقهم ولا أن نقلل من شأن أعمالهم إلا أن المتتبع لكتاباتهم يلاحظ أنها في أغلب الأحيان تتراوح بين الرومانسية المفرطة والتحيز الشديد وتغلب عليها روح المغامرة والإثارة وأنها أقرب إلى الأسلوب الروائي الأدبي منها إلى الأسلوب العلمي التوثيقي . وغالباً ما يحتل الكاتب المغامر في هذه الأعمال المركز البطولي الذي تتسلط عليه الأضواء وتتمحور حوله الأحداث وتطغى على عمله السمة الانطباعية والصبغة الذاتية فيحكم على الأمور من منطلق قناعاته الشخصية وخلفيته الاجتماعية والثقافية ويقيّم الناس والأحداث وكل الأشياء كمجرد وسائل وأدوات تعينه أو تقف دونه ودون الوصول إلى أهدافه وتحقيق طموحاته . ويصل هذا المنهج ذروته عند لورنس T. E. Lawrence في كتابه أعمدة الحكمة السبعة Seven Pillars of Wisdom . ومن بين هذا النوع من الكتب يحتل كتاب الرمال العربية Arabian Sands الذي كتبه ويلفريد ثيسيجر Wilfred Thesiger، مسجلاً فيه رحلته المثيرة عبر الربع الخالي على الإبل، مكاناً متميزاً نظراً لما يحسه القارئ من صدق الكاتب في تواضعه مع البدو وفي تعاطفه مع طرق معيشتهم وفي تقديره لهم وتعبيره عن إعجابه بنسيجهم الأخلاقي وقدرتهم على الصبر والتحمل . وكان الربع الخالي بالنسبة للرحالة الغربيين يشكل آخر المعالم المجهولة في الجزيرة العربية . ومن الذين شاركوا ويلفريد ثيسيجر في عبور هذه المفـازة الموحشة برتـرام توماس Bertram Thomas وجون فيلبي St. John Philby، وهؤلاء يمثلون الجيل الأخير من الرحالة الكلاسيكيين الذين استكشفوا الجزيرة على ظهور الإبل وبهم طويت آخر صفحة من صفحات المغامرة والاستكشاف في جزيرة العرب .

آل فيصل آل سعود مع أبيات شعر نظمها بمناسبة إهدائه السيف لجلالته .

وأنا هنا أؤكد بأن هذه الرواية أصح من الرواية التي تقول أنه أُهدي إلى الشيخ قاسم بن ثاني لأن راشد بن فاضل البنعلي رجل ثقة، أما ما أهدي إلى الشيخ قاسم بن ثاني فلعله سيف آخر وأن القصيدة التي قدمها مع السيف لجلالة الملك عبد العزيز فيها بعض الأخطاء المطبعية وأنا هنا أورد الأبيات كاملة ومصححة :

إن المآثـــر تبني ذكـــر صاحبهـــا

بمـــا عليـــه من الأفعـــال مذكـــور

لمـــا أتى ناصـــر المذكـــور في ملأ

يقود جيشـــاً من الأعجـــام مغـــرور

إلى الزبـــارة والعـــرب الذين بهـــا

من العتـــوب فـــولى وهـــو مكســـور

حتى رمى بجميع السلب منهزمـــاً

فصـــار تذكار هـــذا السيف (نصور)

يهـــدى إلى ملك رأس الفضائـــل من

قد كان بين ملوك الأرض مشـــهور

بالعلم والحلم والدين الحنيف ومن

لواؤه لحـــمى الإســـلام منشـــور

(عبد العزين) حمى الإسلام قاطبة

حقـاً يقينـاً وليس الحق منـكور

فاقبل هديـة من قد حل ساحتكم

جهـد المقل وقل لي أنت معذور

رابعاً : سيف الروضة

ليس لدي تعليق عليه

خامساً : السيف الأجرب

يوجـد تعديـل في قصيدة الإمـام تركي التي نشرت أيضـاً والقصيدة تقول :

من يـوم كل من صديقـه تبـرًا

حطيت الاجرب لي صديق امباري

نعم الصديق إذا سطـا ثم جـرًا

يـودع مناعيـر النشـامى حبـاري

وقصة وصول هذا السيف إلى يد الشيخ عيسى بن علي حاكم البحرين أنه بعد وفاة الإمام فيصل اختلف أبناؤه على الحكم حيث تولى الحكم الإمام عبد الله بن فيصل واختلف مع أخيه سعود بن فيصل وخرج سعود من الرياض إلى عمان ومن عمان اتصل بالشيخ علي بن خليفة حاكم البحرين طالباً منه اللجوء إلى البحرين ومساعدته ضد